تأمُّلات مُنتصف الطريق

(أربعون مقالة ومقالة)



أ. د. عبد الله سعيد بن جسَّار الجعيدي

تأملات منتصف الطريق

(أربعون مقالة ومقالة)

ⓒ مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رقم الإيداع بالهية العامة للكتاب م/ حضرموت: ٢٠٢٢/٢٦٢م

عنوان الكتاب: تأملات منتصف الطريق (أربعون مقالة ومقالة).

تأليف: أ.د. عبد الله سعيد بن جسَّار الجعيدي.

حجم الكتاب: ١٧ × ٢٤ سم

عدد الصفحات: ١٧٠ ص

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع - مصر

هاتـف وواتس آب: 00201008170225

بريدً إلكتروني: daralwefaqnet@gmail.com

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر.

تأملات

منتصف الطريق

(أربعون مقالة ومقالة)

أ.د. عبدالله سعيد بن جسَّار الجعيدي



الإهداء..

إلى ابنتي ساجدة،،

وإلى جيل الألفية الثالثة

الذي يتلمس الدروب الآمنة

المؤلف

المقدمة

د. عبدالقادر علي باعيسى

لا تبتعد كتابة أ.د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي الأدبية عن الحياة الاجتماعية، فنظامها لديه مرتبط بأحوالها التي يعيد النظر فيها باستمرار، مواليا كتاباته في هذا المجال دون توقف منذ صدور كتابه (أوراق مكلاوية) عام ٢٠١١م. إنه ينطق ولا يكاد يكف عن النطق، وفي منطوقه إيضاحات وإشارات تسعى إلى الإبلاغ عن قضايا معينة، فالجعيدي تشغله حضرموت في كثير من مفاصلها، وفي بعض مشاغله كان يصف كما في كتابه (أوراق مكلاوية) و (عابر سبيل) وفي بعضها كان يتأمل كما في هذا الكتاب (تأملات في منتصف الطريق) من غير أن تسيطر عليه تجربة كتابية واحدة، وصفية كانت، أو تأملية، أو تاريخية، وهذه الأخيرة مجال تخصصه الدقيق، وحال التلاحم بين هذه الأنماط الثلاثة لديه غير بعيد، مما أعطاه حظاً من التمكن من حيث إدماج هذه المناحي في تفكيره العام الذي يدفع به إلى الدخول في كتاباته من أكثر من زاوية مستخلصًا أشياء مفاجئة أحياناً ومحاولاً مسايرة ذوق مجتمعه العام في الكتابة، بحيث يمكن للجميع أن يقرؤوه.

إن كتابات الدكتور الجعيدي التاريخية دراسات علمية، أما هذه الكتابات فهي وسيلة للتعبير عن أفكار ربما نتجت في أثناء كتابته التاريخية، ولعله يريد أن يخبرنا عن الأحياء بعد أن كان يخبرنا عن الأموات، وفي كل منها يقدم أفكاره بغض النظر عن اختلاف القراء أو توافقهم معها. وفي المحصلة الأخيرة يصبح كل مقال دليلاً على واقع

يريد أن يحلله، أو يكشفه، أو يوضح أفكاره عنه، ومازالت كثير من الدوائر مفرغة بحاجة إلى طاقات أخرى من التفكير والكتابة لأن مبدأ الكلام عدم الانتهاء.

يحاول الجعيدي التعرض لمشاكل المجتمع، وربما الشروع في حلها، ويلفتك أنه يتناول ظواهر متعددة مستعيناً عليها بالأمثال الحضرمية، وما تشير إليه كتاباته من وجع أكثر مما صرحت به، ولعل الأحوال السياسية والاجتماعية المضطربة في البلد كانت وراء إنتاجها، فنحن نشاهد السياسي والاجتماعي بكثير من مآسيهما في هذه المقالات من غير أن يهمش التاريخ، فإشارته إلى الأمثال والأحداث والشخصيات والعلاقات جزء من التاريخ، ولكن في إطار دينامية تختلف عن الدينامية المباشرة في الكتابة التاريخية الصرف مادامت تلاحظ التطور، والتغير، والصراع، وتسلسل الأحداث.

والدكتور الجعيدي يتمتع بحاسية التقاط جيدة تجاه ما يقرأ من الكتب الأدبية وتعبيراتها الجمالية، مما ينعكس في كتاباته، ويمكن عد هذه الكتابة تطورا جماليا لكتابته التاريخية انطلاقا من خلفيتها الواضحة في التاريخ والأدب، يقول: "ولا تخلو المجتمعات البشرية من النزاعات البينية مهما وثقت العهود، وسجلت الشروط، فهناك تفاصيل يدخل منها الشيطان كما يقولون، وإذا دخل الشيطان وتمكنت قواعده اشتعلت الأطماع، وتزين الباطل، وغابت فضيلة التسامح، وتقدمت الأنانية بكل أشكالها القبيحة" من مقال (ادخل عيف واخرج زين) إنه يستلهم التاريخ في إطار هذه الكتابة الأدبية، ويقول: "وموسيقى نص المثل وطرافته (ماشي بلاش إلا نطيح الكباش) تجعلنا نبقى قليلاً في (سوق الكباش) نتناطح مع ثنائية (البلاش-والكباش) على ما فيهن من اختلاف، وجناس ورغم ما في المثل من نصائح ثمينة، وقيمة، وببلاش، فإنه يدفعنا إلى تساؤل فضولي من قبيل: هل تناطح الكباش الخالية من القرون دفاعاً عن النفس، أم هو ضمن لعبة الكباش؟ لكن يبدو أنها وهي الأسيرة

المغلوبة على أمرها، تؤكد على حقها في الحياة، أو لعلها (والله أعلم) لا ترى السوق إلا كباشاً تتسارع مع كباش" من مقال (ماشي بلاش إلا نطيح الكباش).

الجانب الصراعي هنا لا معنى له عند المتصارعين عليه، أو لا وضوح للرؤية فيه عندهم، ومثل هذا كثير في السياسة والصحافة. ومع هذا يبدو الصراع قائماً وقوياً، فلغة نص الجعيدي الأدبية تنفتح على معانٍ مشتقة من ثنايا التاريخ، ومن تداعياته المأساوية، يدفع إلى إبرازها ضغط الواقع المعاصر. إنه يعبر عن أفكاره الشخصية في التاريخ وخارج المؤسسة الأكاديمية بلغة أدبية أكثر تأثيراً، فلا شعورياً يمارس الجعيدي تمرداً على المؤرخ في نفسه لصالح الأديب، ولكنه سرعان ما يعود إليه بصورة موارية، وقد نظرت بعض المناهج إلى العلاقة بين التاريخ والأدب بوصف الأدب يحتوي على كثير من الحيوية التعبيرية التي تعمل على توضيح بعض مظاهر التاريخ سواء في الأشخاص أو في الأحداث.

والمعاني التي يقدمها د. الجعيدي في مقالاته تقوم على مثل قادم من الوسط الاجتماعي الشعبي، فيعتمد عليه في تحقيق رؤيته في المجتمع وما يتصل به من قضايا. والحقيقة أن المثل مكتنز ببلاغة توحي بأشياء كثيرة، ومع أن المثل عنصر عضوي مندرج في المجتمع بشكل مباشر، فإنه يعمل أيضا في إطار الأدب بوصفه جزءا منه، ويعطيه الجعيدي -انطلاقاً من هذا- تصورات أوسع، ويذهب بدلالاته إلى أبعاد متعددة، فالمثل في مقالات الجعيدي يرسخ هوية المجتمع من ناحية ويضرب به في هوية نوع أدبي آخر هو المقال من ناحية أخرى مزاوجاً بين نوعين من الأدب هما (المثل والمقال) إنه يفعّل أدبية المثل بصورة خاصة به، فينقله من الواقع الاجتماعي إلى المقال الأدبي، وهذه الطريقة تتيح فهم المثل والاستجابة له بحيث يصير جزءاً من المقال مستفيداً من بنيته اللفظية إذ تنبث بعض مفردات المثل، ويعاد تكرارها لإنتاج دلالات جديدة

داخل المقال، ففي مقال (الشاة شاة سالمين واللبن لسيده) يقول الجعيدي: "وإذا اتسق سالمين القديم مع زمانه المحكوم بوطأة التراتب الاجتماعي الذي دفعه لقبول معسول الكلام وخدمة سيده بوصفه قدراً لا فكاك منه ولا مناص عنه، فإن (السالمين الجدد) وتحت عباءة تقمص دور الوقار ومظاهر الوجاهة بدلوا جلودهم، ليتسقوا مع المقام أو الدور المنوط بهم كل في مجاله... (وسالمين) النموذج شخصية عابرة للتاريخ والقارات بكيفيات متنوعة. وبإطلالة على مقاربات التاريخ سنجد ضالتنا في نماذج كثيرة، أما في هذا الزمان فحدث ولا حرج، وقبل أن نستعرض عينات من النماذج (السالمينية) وتقريب الصورة سنعمل على فرز العينات المختلفة بحسب طبيعة دورها، فهناك (سالمين) بالإكراه، وآخر بالاختيار، وصنف مخاتل وهو في الدرك الأسفل من (النفاق) ومن عينات الصنف الأول في العصور الوسطى نجد مثالاً صارخاً في مرحلة ضعف الدولة العباسية عندما تمكنت مراكز القوى غير العربية من السيطرة على مقاليد الحكم، وامتلكت القدرة على تنصيب الخلفاء وعزلهم، فصار الخلفاء يملكون ولا يحكمون، بينما يستمر الدعاء لهم في المنابر بطول العمر، وبالنصر المؤزر على الكافرين.

ومن عينات التبعية الاختيارية نلاحظها عندما استطاع الرئيس الروسي الحالي (بوتين) بعد أن انتهت مدة رئاسته من تمكين رجل من رجاله من الوصول إلى رئاسة الاتحاد الروسي، لأن مواد الدستور تعطي فرصة لإعادة الانتخاب للرئاسة بعد وصول وجه جديد، فأتقنت (العينة) دورها في الحكم ظاهرياً، واستمر (الرئيس) بوتين يحكم من خلف الدستور إلى أن عاد رئيساً بعد نهاية المشهد، وهو مطعم بمواد الدستور نفسه.

وهناك الذين تداخلت ثنائية الاختيار والإكراه في صولاتهم وجولاتهم، ويمكننا أن نختار عينة من حكّام جنوب الجزيرة العربية الذين ارتبطوا بمعاهدات حماية واستشارة مع المستعمرين البريطانيين، فصار المستشارون البريطانيون لهم كلمة قوية في إدارة

شؤون الحكم في بلدانهم، لكنهم وبذكاء أبقوا على مظاهر الاحترام للحكام أمام شعوبهم من خلال الألقاب التي منحوها لهم ومراسيم التشريفات بإطلاق مدافع الترحيب بهم". (مقال: الشاة شاة سالمين واللبن لسيده).

أدبية المثل إشارية وتنفتح على عدة دلالات محتملة في كتابة الجعيدي إلى درجة يبدو فيها المثل البسيط صادماً، وتغدو بنيته اللفظية المحدودة واسعة، وذات أبعاد متفاعلة، وعليه لا يغدو المثل شفافاً ومحدداً من جراء ما تم استنتاجه فيه من تأويل، حتى بدت لغته كثيفة من خلال سياق المقال وذات تأثيرات متعددة، لاسيما أن الجعيدي يستخرج ما في المثل من التباسات واحتمالات متعمقا قراءة بعض الأحداث السياسية والتاريخية والاجتماعية من خلاله.

ومن ثم فإن الكاتب يحقق الغاية التي يريد الوصول إليها من خلال تأويلاته الخاصة في فهم المثل، بحيث يمكن القول إن المثل تحول إلى قناع عند الجعيدي يمرر من خلاله أفكاره، متقمصاً دلالته مستخدماً بعضاً من خواصه المعجمية والدلالية، وهي خواص تتوافق مع رؤية الكاتب لما يتكلم فيه. وهو مثل شعبي حضرمي فصوته مهما علا هو في المحصلة الأخيرة منطلق من صوت حضرمي عام، وفي أحسن الأحوال فإن الذي يتكلم هو المثل والجعيدي معاً، ومعروف أن القناع يعطي حرية أكبر للكاتب لبث ما يريد، وتظل المعاني المراد استنتاجها متصلة بالمثل، والمثل نفسه جزء من التاريخ، رغم أنه في الوقت نفسه لا تاريخي من حيث كونه يمتد من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل دون أن يفقد خصوصيته.

والجعيدي يؤكد على دور التاريخ في كتاباته وأبحاثه وهو إذ يدرك البعد التاريخي للمثل يعي أن ظروف إعادة إنتاجه وتنويع دلالاته مازالت قوية، بدليل هذه القراءات المنبثة عن المثل والتضمينات التي استخرجها منه والتي يبدو معها المثل مخزناً لكثير

من المعاني، وإن كان استنتاجها يتصل عند الجعيدي بالواقع المعاصر والواقع التاريخي أكثر مما يتصل باللغة.

ولم يصل الجعيدي إلى شيء من أبعاد المقاربة المتطرفة فيما يكتبه، إذ ظل في حدود الواقع، وفي حدود وجدانه الذي يقرأ به المثل، والوجدان عند الجعيدي ليس ذاتياً فقط، بل ناتج عن ظروف تاريخية معينة أسهمت في إنتاجه لا سيما في ظل المرحلة الاشتراكية في عهد جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية. فتأويلاته ورؤاه مرتبطة بتلك الظروف، وهو يتفاعل معها بوصفها جزءاً من أحداث التاريخ المتحولة عنده إلى وجدان بغض النظر عن طبيعة هذا الوجدان، وتلك الظاهرة واضحة في كتاباته يقول: "ذات يوم في بداية سبعينيات القرن الماضي كانت الحمير في مدينة المكلا على موعد في دورة مغايرة لمهامها التقليدية، لهذا زينت عرباتها بالأعلام الملونة والبالونات، وعلى أسطح العربات ركب أطفال الروضة وهم بكامل زينتهم، وطيف بهم في أرجاء المدينة في شهر فرائحي مشهود، وكان صاحب الفكرة مدير الروضة وقتئذ السيد محمد سعيد مديحج، وبعد أكثر من عقدين من ذلك اليوم سألت السفير محمد سعيد مديحج عن مغزى فكرته الابتهاجية، فقال: كانت فعالية رمزية انطلت على الحكام وقتئذ، فكنت أريد توصيل رسالة تحذيرية لخطورة قيادة (الحمير) للتعليم في ذلك الزمن الذي تقدم فيه الصفوف السياسي (الثوري) على المهني المحترف، وبعد أكثر من أربعة عقود من تلك الحادثة الرمزية ممكن القول للأستاذ محمد مديحج –رحمه الله- لقد وقعت الفأس في الرأس، وأنه لو تركت الحمير الأصيلة فرصة للقيادة في البلدان المتخلفة ربما سيكون أداؤها أفضل من بعض البشر فهي في الأقل تنفع ولا تضر، ثم إن الحمير لا يقتل بعضها البعض". من مقال: (كما حمار الهجرين).

الجعيدي يهمه – كأي كاتب – إقامة تواصل كتابي – قرائي بينه وبين قرائه، مما يستدعي وجود وضع درامي بينهما أحياناً، وليس منسجماً في كل الأحوال، وهذا الوضع الدرامي داخل في إطار العلاقات السياسية والاجتماعية، واختلاف وجهات النظر حولها. إنها دراما واقعية وليست خيالية مجردة، فلغة الجعيدي يشكلها الواقع، ويظهر أنه لا يتورط كثيراً في الفكرة التي يتحدث عنها مادام يحيل على المثل ويستشهد بأحداث حقيقية وأشخاص حقيقيين. وفي ثنايا ذلك قد يعمد إلى التلميح الأقرب إلى التصريح انطلاقاً من طبيعة العلاقات الاجتماعية– التاريخية التي عاشرها سواء بالسلب أو بالإيجاب، وإن كان يصرح أحياناً فيخرج بالمثل عن واقعه الإشاري إلى صراحة واضحة.

وحتى في إطار تلميحاته يستطيع القارئ أن يلاحظ الجذور المباشرة لتلك التلميحات، وهي ذات بعد ثنائي مباشر (من – إلى) وليست معقدة، وإن كان يعمد إلى إثرائها بمزيد من التعبيرات الأدبية الاستعارية والكنائية ببصيرة حاذقة. واستخدام المثل في كتابة المقال أظنه من الأساليب المؤثرة عند القارئ العام، فنحن في هذه الكتابات ذات الأمثال أمام لحظات ذات أهمية تاريخية، ولحظات ذات أهمية سياسية واجتماعية وتعليمية وثقافية إلخ... وبين اللحظة التاريخية واللحظة الاجتماعية ثمة مفارقة تنتج من جراء المقارنة مما يعني أن الأول متدهور بالنسبة إلى الثاني أو أن الثاني متدهور بالنسبة إلى الأول، وربما كان الجعيدي يندب الحاضر أكثر مما يندب الماضي، ربما لأنه مختص بالتاريخ رغم أن كثيراً من مآسي الحاضر قادمة من التاريخ، يقول: "وما أدراك ما حكام العرب فالكتلة العاطفية عندهم تطغى على إعمال العقل، ولا سيما عندما يختلفون ويتنازعون فيما بينهم، بل تجد في كثير من الأحايين الفجور في الخصومة، فمثلاً عندما يزعل الحاكم العربي من أخيه العربي يتم قطع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية وتشغل الأبواق الإعلامية للطرفين على التعبئة، مستخدمة كل الأساليب

والألفاظ المسيئة، وفضح الأسرار كما يتم طرد طلاب العلم، والعمالة، وتهتز علاقات التصاهر عندما يكون الزوج أو الزوجة من (الدولة المعادية) وكأن الأمر سيستمر إلى يوم الدين. وبهذه المواقف العبثية تتحطم الأشواق، وتخيم المشقة إلى أن تهدأ فورة الغضب، فيتغير الخطاب الإعلامي بنبرة لا تخلو من الرومانسية عن العروبة والأخوة واللحمة، ووحدة المصير المشترك (وما محبة إلا بعد عداوة) كما يقولون". من مقال (الشوق ولا المشقة).

إننا دائما – نحن العرب – بين بداية واقعية أليمة ونهاية رومانسية حالمة، تظل تعيد نفسها عشرات المرات، وبهذا المعنى تكون البداية هي النهاية، فنعيش وجودنا في هذه الحالات التي لا تكاد تنتهي، مما يجعل الرومانسيات أكثر بغضاً في عيون من يقرؤون الواقع بحق، ذلك لأن الدور اللاحق لها هو العداء وما ينتج عنه، فالوعد بالحياة لا تقدمه للعرب إلا الرومانسيات، وهي راحات ضئيلة بالقياس إلى حالات التعب المستدامة، فتخضع طاقاتنا الإبداعية في جميع المجالات لإمكانات التدمير الموجودة فينا، حتى نضعف أنفسنا فنبدأ بداية رومانسية جديدة، وفي كل مرة تكون البداية الرومانسية أضعف من سابقاتها.

هذه احتمالات يقدمها مقال الجعيدي (الشوق ولا المشقة) وهو شوق نادر وقليل، وكعادته يكتشف الجعيدي من المثل أشياء متعددة، وأجمل ما يكتشفه في هذا المثل شيء يشبه القوانين التاريخية والاجتماعية انطلاقاً من مرتكز تاريخي واجتماعي فادح الدلالة مصدر إشعاعه المثل الذي لا يعلمنا أحيانا كيف نعمل، ولا كيف ننتقل إلى ما هو أفضل، ذلك لأن المثل متورط فينا بوصفه جزءاً منا، كما نحن متورطون فيه. وإذا تخلينا عن المثل افتراضاً لا نستطيع أن نرى شيئا واضحاً في المجتمع، ولا في التاريخ، ولا في أنفسنا.

إننا نكتشف طبيعة المثل من خلال واقعنا الذي مازال قائماً كأن اللحظة الزمنية المثلى هي لحظة المثل الثابتة التي لم تتغير على مر التاريخ، فالمثل نظام دال بأقل عدد من الكلمات على مجتمع بكامله وعلى تواريخ بكاملها ، والمثل نموذج مهيمن على تفكيرنا، يوجهنا ويفعل فينا، ولا نستطيع أن ننساه، فمن سينقذنا من المثل؟! فطريقة إدراكنا للواقع وطريقة استجابتنا له مرتبطة بالمثل المغروس في لغتنا وفي وعينا ف (كل قرصك وادخل خلصك) " ولأن لفظة (خلصك) تحيل عادة في الثقافة الشعبية إلى الفتحات الصغيرة، والتشققات في الجدران والسطوح، حيث مأوى الحشرات، فإن العنوان (النصيحة) أقرب إلى الشتيمة منه إلى النصيحة لقوم يتفكرون" مقال: (كل قرصك، وادخل خلصك).

ولعل الباحث الاجتماعي تفيده هذه الأمثال كثيراً كما أفادت الجعيدي، والمثل يدخل إلى حواسنا وليس إلى عقولنا فقط، وله سيطرته الخاصة على حركات أيدينا ونحن نعد الأوراق النقدية، وربما ونحن نأكل، وحين تأوي أقدامنا إلى خصوصياتنا المكانية التي لا نريد أن يعرف عنها أحد، ونتمصلح منها نحن فقط، وربما يكون للمثل دوره في تصميم أدمغتنا ذلك لأنه من أبرز المحفزات لنا في حياتنا الشخصية والعامة.

لقد تغير المكان والزمان وما تغير المثل، وتقسم المكان والزمان وما تقسم المثل، وما تغيرنا، ولكننا كثيراً ما انقسمنا. وعليه أدعوكم إلى هذه القراءات في الأمثال التي يقدمها بحصافة أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي في تأملاته في منتصف حياته.

مارس ٢٠٢٢م

المكلا

مسارات إلى الذات

النهقة

تسارعت بهم الخطى، إلى نقطة التقى. لا أدري كم عددهم؛ فهناك احتمال أنهم سبعة ثامنهم حمارهم أو تسعة عاشرهم حمارهم، فغرابة الحكاية جعلتني أغفل عن تحديد عددهم، ومعرفة أصنافهم، ولكن من خلال حكاية (أحدهم) عرفت أنهم متقاربون في الفصيلة والقامة.

ومضى يحكي..... لم يكترث بما ينتابني -أحيانا - من غفلة وشرود:

في ساحة كبيرة من المخاطر والغموض، ولدت حاجتنا ومصلحتنا في النهوض. وبعد شدة وصبر ضحك لنا القدر. ووجدنا أنفسنا في مكان أمين بعيد عن الأنظار. كانت المراعي وفيرة، وآبار الماء متدفقة غزيرة. عززت سنين الشدة والفرج صداقتنا وتطورت هذه الصداقة إلى قريب من مرحلة الأخوة بمعانيها الأصيلة الصادقة. وانطلقنا نحو المراعي المفتوحة والجبال المنصوبة. لم يكن هناك ما يدعو للخوف. كان تماسكنا يغمر قلوبنا بالطمأنينة، وشبابنا يملأ عالمنا، وحتى حمارنا لم يستطع تعكير صفاء مخدعنا.

لكن دوام الحال من المحال..... فقد تمايلت أبصار البعض منا، حتى ظهر منا من أراد وحده أن يرسم خطواتنا، ثم بدأنا نشعر باحتكاك أجسامنا، وفي الظلام تفرغ بعضنا لعض بعضنا، وبهذا اضطرب أمننا.

وهكذا شاخت قلوبنا وكانت شباباً، وصار ما نبنيه بأيدينا تهدمه أرجلنا. وفرح الحمار، وظن الوقت حان لينهق نهقته، ولكن ما تبقى من صوت العقل ألجمه.

ومضت السنون، فقدنا بعض هيبتنا ولكن لم يجرؤ أحد من خارج مجموعتنا على نهش لحمنا. وقبل نهقة الحمار الكبرى كان زميلنا مصدر تماسكنا، وعنوان حكمتنا يتقدمنا باحترام، وقبول، وبدأت بوادر جديدة تنعش الآمال وتجدد الأحلام، وهكذا

لاحت أيام الصفاء القديمة، وكادت أن تلتئم جميع الجراح ولكن الحمار اللعين عاد إلى أصله وكاد أن يخل باتفاق خطير كنا قد عقدناه، وهو أن نلتزم جميعا بالهدوء لكي لا نلفت إلى أنفسنا الأنظار، كانت ضغوطاتنا بعد التكرار، تنفع مع الحمار. ولكن شوق الحمار للنهيق تجاوز قدراته على الصبر، وسماع صوت العقل.. وأخذ يطالب بالعودة إلى أصله وطبيعته مهما كان الثمن.

تراوحت شكوك البعض منا تجاه الحمار، لكنها لم ترتق إلى مرحلة الاتهام بالخيانة والغدر. إنها سلوكيات خبيثة ماكرة فوق قدراته، ولكن جنوحه الغريب المخل بالاتفاق العظيم أدهشنا وأثار تساؤلاتنا! كيف يقذف بنفسه ومن معه إلى مزالق مجهولة خطرة! إن الأعداء والمتربصين كثيرون، وكان صمتنا يذعرهم، وغموضنا يبعدهم. أكثرنا تفاؤلاً قال: إن الخيرات التي نطقت بها الأرض بعد الأمطار الغزيرة جعلت الحمار يشعر بالطمأنينة والسعادة ولا وسيلة أمامه في التعبير عن ذلك إلا النهيق، وهناك من شطح به التحليل إلى بعيد، وقال: إن اضطراب حركة السحاب في السماء أصاب الحمار بالذعر، فهي نهقة خوف وليست نهقة سعادة.

ولهنيئة سكت الراوي حتى يشدني إلى المشهد الحزين، أو لعله شعر ببعض الاضطراب في روايته! .....وقال:

اعتلى الحمار ربوة قصية، كان قد حسم أمره، توسلنا تحت الحمار ألا يفعلها... قيل له: إن تصرفك سيهدد حياتنا ومستقبلنا فلا تجعل شهوة لحظات تهوي بنا إلى الظلمات، ثم قيل له بنهره: إن النهقة تعني الموت ... ولكنه قرر ألا يسمع هذه المرة، إلا صوته النكرة ..... وبتصميم (بليد) تراجع الحمار خطوتين إلى الوراء ثم رفع يديه استعداداً لإطلاق قذائفه المكبوتة.....

ملحوظة: هذه حكاية خيالية مستمدة (بتصرف) من الثقافة الشفاهية الشعبية الحضرمية، فمن وجد في شخصه تشابهًا مع بعض شخوصها فهذا شأن يخص شخصه الكريم، ولا يخص الحكاية الخيالية وشخوصها.

"يد ما سرقت ما تخاف"

يختزن الناس في ذاكرتهم الجمعية الكثير من الحِكم والأمثلة والحكايات التي تحث على التروي قبل اتخاذ القرارات المهمة أو المصيرية (والراضة من الرحمن والعجلة من الشيطان). وبين النظرية والتطبيق تتداخل أمور كثيرة تحدد بموجبها مدى الاستجابة السليمة للمواقف الطارئة، ولهذا تتباين قدرات الأفراد كل بحسب سيكولوجيته الخاصة وتجاربه في الحياة، وكما يستفيد الإنسان من تجاربه يستفيد من تجارب الآخرين ولاسيما إذا صار طرفاً في مواقف مشتركة، من ذلك – على سبيل المثال– دخولي مع أستاذي الدكتور محمد سعيد داؤد في موقف كاد أن يكون له عواقب وخيمة...

نحن الآن في قاعة الصف كلية التربية بالمكلا (العام الجامعي ١٩٨٦- ١٩٨٧م المستوى الثاني/ قسم التاريخ) نستعد للاختبار الشهري الأول في مقرر تاريخ اليمن القديم. التنافس بين زملاء الدفعة على أشدّه، وبالنسبة (لكبار) المتنافسين كان كل زميل يطمح في أن يسجّل انطباعاً جيداً في أول اختبار عند أستاذ اشتهر بالدقة في التصحيح. .

بعد المعاينة العامة للصف شرع أستاذنا بتوزيع أوراق الأسئلة مع فراغات بين الأسئلة لكتابة الإجابات في الورقة نفسها، وهو أمر غير معتاد في الاختبارات الشهرية. المهم انشغل كل طالب بحاله ولا مجال للغش البتة فقد كانت الإجراءات العقابية صارمة، وفي تلك اللحظات أدى أستاذنا دور المراقب اليقظ من خلال تمشيطه لزوايا الصف المختلفة، وفي أثناء هذه الصولات والجولات وبدون مقدمات ضغط براحة يده على كتفي برفق فظننت أنه ربما يعيد توازنه جراء الحركة المستمرة. ثم أخذ دورة

جديدة حول الصف، وضغط بإبهامه على كتفي بحركة أقوى من سابقتها فالتفت إليه لكنه لم يقل شيئًا واكتفى بنظرة خاطفة، وانغمست في ورقة الإجابة مع تخمينات داخلية لا علاقة لها بجريمة الغش من قريب أو من بعيد. في الجولة الثالثة همس في أذني قائلًا: " ألا تريد إغلاق المذكرة؟!" فتنبهت.... فإذا بعناصر (الجريمة) واضحة وكان من حقه وبضمير مرتاح أن يسجل حالة الغش ويطرد (الطالب)، فالدليل لا يقبل الشك، وبسرعة أغلقت مذكرة المقرر الموجودة داخل الميز التي سهوت عن إغلاقها، واستكملت على عجل إجابة بقية الأسئلة وغادرت الصف. كنت في حالة قصوى من القلق والتوتر ليس فقط من احتمال رفض ورقة الإجابة بل كان الخوف - وهو الأهم - على (شرفي العلمي)؛ لهذا أعربت عند تسليمي ورقة الإجابة عن استعدادي للاختبار مرة أخرى في ما تبقى من وقت ولكن الأستاذ هوّن من روعي وقال: "لم يراودني الشك لأنك لم تهتز عند الضغطتين السابقتين"، وحتى نعطي للمشهد أبعاداً أخرى فإن هناك معطيات ربما ساعدت على التأني، منها تفاعلي في الصف في أثناء المحاضرات فكان هذا - والله أعلم - نقطة مساعدة، وعلى أية حال فإن الموقف ترك أثره الطيب في نفسي، وزاد من احترامي لأستاذي وتعلمت منه درسًا حيًا في أهمية (الراضة) والتروي قبل اتخاذ القرارات أو الحكم على الناس.

كان البديل (الافتراضي) إذا ضُبِطت الحالة وأُعلنت هو تحملي شبح تهمة من الصعوبة بمكان تجاوزها، أو تأكيد البراءة منها، فعيون الناس واحدة، ولكنها تختلف في التفسير باختلاف النوايا التي في الصدور، وبتنوع المشاعر التي في القلوب.

* * *

(لاتقول بر إلاَّ لمَّان تصر)

خيوط رفيعة تفصل بين المثل الشعبي، والقول المأثور، وأحياناً يصعب التمييز بينهما وبصرف النظر عن الاختلاف أو التشابه فإن هناك قواسم مشتركة تحملها رسائلهما التي تنبع من الذات الجمعية، وتعكس ثقافة المجتمع وتختزل تجارب إنسانية تتركز في كلمات يقصد بها النصيحة أو التحذير أو التشجيع وأشياء كثيرة، وهذه الأمثلة غالباً ما تكون عابرة للمناطق، تشترك فيها المجتمعات الإنسانية فتتغير المفردات والمعنى واحد.

وفي حضرموت تتداخل الأمثلة والحكم والمقولات المنقول منها، والأصيل الذي يستمد هويته من خصوصية مفرداته العامية، وارتباطه بالبيئة المحلية، وقبل التوقف عند هذا المثل لابد من التغلغل في بنيته وتفسير مفرداته العامية، لاسيما مفردتي (البر)، ويقصد به القمح، و (لمَّان) التي تعني: إلى أن، والمعنى الحرفي للمثل هو النصيحة بعدم الاستعجال في احتساب القمح مضمون الحصاد إلا إذا تم حصاده وربطه بإحكام في الأكياس (الجواني)، وهي مرحلة تجاوز فيها محصول القمح المخاطر المتوقعة من هجوم الحشرات أو تقلبات الطقس أو عبث الطيور وغيرها من المخاطر.

ويؤشر هذا المثل المحفوف بالتشاؤم إلى أهمية هذا المحصول في حياة السكان، لاسيما وهو يزرع في بيئة جغرافية يغلب عليها الجفاف، وتقع في ما يعرف بمناطق ظل المطر. لهذا يعد نزول المطر في حضرموت حدثاً حيوياً يقرن غالباً برحمة الله، فعندما تسمع الأرض مرحومة في حضرموت فهم يقصدون الأرض نزل عليها المطر، وإذا تفهمنا

هذا القلق الحضرمي في متابعة زراعة هذه السلعة إلى مرحلة ما بعد الحصاد فإننا نلاحظ أن حالة القلق تتحول عند البعض منهم إلى ما يشبه الذعر وبخاصة أولئك الذين يحركون المثل إلى: (لا تقل بر إلاَّ لمَّان قده بين الكبد والصر)، أي: صار طعاماً تم أكله واستقر في الأمعاء، وهذه مرحلة يمكن وصفها (بفوبيا القمح) التي يسود فيها التشاؤم إلى درجة مبالغ فيها، وهي ترتكز على كم هائل من المخاوف والتوجسات من الأعداء المتربصين بحبة القمح، وهذه الفوبيا (القمحية) لا علاقة لها بقصة الرجل الذي توهم نفسه حبة قمح فظلّ يتوجس من ديك الجيران واحتمال ابتلاعه، وعندما عولج من هذا المرض واقتنع بآدميته، وأنه ليس حبة قمح خرج من بيته، وعندما شاهد الديك عاد مذعوراً ... وعندما أكد له أهله إنسانيته وأنه ليس حبة قمح أجاب : بأنه مقتنع بذلك ولكن من يقنع الديك؟

وعلى الرغم من أن القمح صار في مراحل لاحقة يحتل المرحلة الثانية بعد تسيد الأرز على موائد الطعام الحضرمية، ثم توسع زراعته واستقدام أنواع جيدة ورخيصة من بلدان بعيدة فما يزال المثل يحتل مكانه البارز في الثقافة الشفهية الحضرمية، لكن بإسقاطات متنوعة لا علاقة لها بالقمح وطحينه فصار له حضوره القوي عند النصيحة بكتم الأسرار أو بعدم البوح بالمساعي المتوقع إنجازها قبل أوانها. وحقيقة الأمر فإن الخوف من المستقبل يأخذ مكاناً واضحاً في الثقافة الشعبية الحضرمية بحيثيات تختلف فحواها لكنها تتفق في مضمونها، من ذلك قولهم : (لا تقول صيبي صيب إلا لمان يعدي الحصبة والقطيب)، وهكذا يظلون في حالة توجس مزمن من أن يصيب الطفل أحد هذه الأمراض القاتلة فيعكرون فرحتهم ويفسدون بهجتهم بهذه النعمة التي محياها ومماتها بيد الله، ولا يدل هذا على ضعف في الإيمان فهم مشهورون بتدينهم، لكن ثقافة الخوف في الوجدان الحضرمي لها أبعادها المتشعبة بحيث يصير

من الصعوبة بمكان حصرها في اتجاه واحد أو عامل من العوامل، ولنا أن نتخيّل – على سبيل المثال– حالة الترقب والوجل الكامنة في النفوس في هذا المجتمع الذي يهاجر قسم كبير من رجاله وشبابه وأحياناً أطفاله بحثاً عن الرزق في بلدان بعيدة، يمكثون فيها سنوات عديدة، ويقطعون للوصول إليها صحارى ووديااناً، ويمخرون عباب البحار وأهوال المحيطات على سفن شراعية تستغرق رحلتها شهوراً تاركين في تغريبتهم مدنهم وقراهم وزوجاتهم وبناتهم وأخواتهم وأمهاتهم اللاتي لا تقل فجعتهنَّ بقرار السفر من المسافرين أنفسهم لاسيما عند مغادرة الأطفال إلى المجهول بعد أن يختصروا عنوة أجمل سنوات عمرهم.

وإذا سلمنا بأن منطقية ظهور أمثلة (فوبيا القمح) محكومة بزمانها حيث التخلف الاجتماعي وظروف الطبيعة القاسية والإمكانات المحدودة، فإنها إذا استحضرت في ظروف غير زمانها تحتفظ بخلاصتها، وتستمد منها الحكمة والعبرة، ثم تصير ملمحاً من ملامح الثقافة الشعبية لمجتمعها وعنواناً لهويته، ربما سيخامر قراءتنا لهذه الأمثال بعض الشكوك أو التحفظات، لاسيما ممن هم خارج الدائرة المحلية، وقد تبرز قراءات مغايرة وهذا حق لن يسقط بالتقادم، والمهم احترام الرأي المختلف بمعزل عن ثقافة التشاؤم، التي لا تعترف بالقمح إلا بعد أن يستقر بين الكبد والصر، أو تلك المرتبطة بأوهام صاحب الديك.

* * *

"يا ناس خلّوا الصياح"

((يا حضـرموت افرحـي .. كلـين بالسـر بـاح
واحيـي الليـالي المـلاح .. الفقـر ولّـى وراح
بترولنـا بـا يجـي .. يـا نـاس خلّـوا الصـياح
ريحه في الاحقاف فـاح.. الفقـر ولّـى وراح))

* * *

بعد أبيات شعرية تؤكد على الفرح، وتبشر بالأمل، والليالي الملاح لاينسى الشاعر حسين محمد البار تضمين نصيحة ذهبية للناس بأن يكفوا عن الصياح والكلام غير المباح، أو لعله أراد أن يقول لهم إن الفرح والضجيج قطبان لا يلتقيان وخلال أكثر من نصف قرن صارت هذه القصيدة (البترولية) ترنيمة حضرمية حزينة سجلت مرحلة انكسار حلم حضرمي على عكس ما قصد قائلها من التبشير بميلاد عصر مزدهر مع سبق الإصرار والترصد.

كان خبر اكتشاف البترول واحتمال تصديره في ستينات القرن الماضي حلم الحضارمة العظيم فقد رأوا فيه الضمان الذي سيضع حداً لمعاناتهم المزمنة، وشتاتهم الواسع في أرض الناس لاسيما أن مواطن الهجرة التقليدية في شرق آسيا وشرق أفريقيا سدت أبوابها بعد الحرب العالمية الثانية وتعقيدات التطورات السياسية الدولية ما بعد

المرحلة الاستعمارية، وصرخة البار لاستتباب الهدوء ربما ستكون عابرة، وغير مسموعة في سياق قصيدة (أغنية) ضجت حروفها وكلماتها بالفرح وسحبت الأذهان إلى عوالم جديدة تتشكل بحسب اتساع خيالات أصحابها.

ومن منظور السياق التاريخي أو تاريخينية القصيدة سيظن البعض أن القصيدة ماتت مع نهاية حلم ظهور البترول في حضرموت وارتفاع الشركات العاملة منها قبيل عام ١٩٦٧م، فلا الفقر ولّى وراح، ولا ظهرت الأيام الملاح، وحتى عندما تدفق البترول من حضرموت في تسعينات القرن الماضي وما بعدها لم يحصد الحضارمة إلا مزيدًا من الفقر والقهر، وغابت قصيدة الفرح الحضرمية البترولية إلا على استحياء، ومع هذا ورغم الضبابية نرى أن في متن القصيدة عروقاً تنبض بالحياة وأنها تمضي إلى سياقات مؤجلة ربما سيجد بعض الناس في هذه اللحظات - التي تحاول فيها حضرموت صناعة نفسها والإمساك بزمام أمورها - فرصة مناسبة لاستدعاء القصيدة بعد ما ينيف على نصف قرن من الزمان من ظهورها.

لكننا عندما نعيد النظر في ماضينا القريب وحاضرنا المعيش لاسيما خلال القرن الماضي وحتى حينه نجد أن هناك محاولات من النخب الحضرمية من ساسة وعلماء ومثقفين وشخصيات اجتماعية سعت لتوحيد الكلمة وإيجاد آليات تجعل من حضرموت كتلة فاعلة في محيطها، بيد أن هذه المحاولات تصطدم بعوائق منها: التنازع، والتشاحن، وغلبة الذاتية على المصلحة الوطنية وفي مثل هذه الأوضاع يتراجع عن حضرموت صوت العقل ويتجمد الفرح، وإن لاحت بشائره، وتفاصيل ذلك في كتب التاريخ. وخلال السنوات والأيام القريبة كنت شاهدا على محاولات (مخلصة) اجتهدت للملمة الناس، وعندما تحين موعد الكلمات يتغنى الكل بحضرموت حد البكاء والهيام، وحين

تحين ساعة العمل وأفكار التأسيس يبحث الكثير منهم عن مكانه، ومكانته وإن كانت قدراتهم أقل بكثير مما يتطلعون إليه.. فإن أعطوا رضوا، وإن لم يعطوا يسخطون ويتذمرون فإذا بالانسحابات (البطولية) تتناثر، وإذا بالتكتلات تلو التكتلات تتفرخ، ويستمر الصياح، وفي مثل هذه مواقف يطل – أو هكذا يخيّل إليّ – الشاعر حسين البار في المكان لكن في ثوب جديد وملامح صارمة ونظرات جادة لا علاقة لها بالدندنة والفرح ويبدو وهو يصرخ صرخته التي ما تزال ترن في أذني واثقاً من وصول صوته إلى الناس أو إلى رائد لا يكذب أهله.

يا ناس إن حضرموت لن تعبر إلى مستقبلها إلا بعقول المتنورين الصادقين من أبنائها .. يا ناس لن تصنع حضرموت الجديدة في المجالس الفاقدة للوعي، والغرف الموبوءة بالقات .. يا ناس التاريخ ولّى وراح .. يا ناس التاريخ للتدبر والتأمل وللعقول الصحاح .. يا ناس المستقبل قرّب ولاح .. يا ناس خلّوا الصياح...

* * *

المرحوم غلطان

ذات يوم كنت وصديقًا مقيمًا في مدينة القاهرة نتمشى على كوبري قصر النيل دون أن أكترث لمخاطر الطريق فنبهني قائلاً: هنا في ثقافة المرور وحوادثها (المرحوم غلطان) وهذا المرحوم الذي مات بسبب حادث مروري غالباً ما يكون من سائقي الدراجات النارية أو الراجلين، وصفة المرحوم المباشرة التي تطلق على الضحيّة تطلق عادة من باب الدعوة له بالرحمة، وهو ما يكرره المسلمون في كل مكان ثم استقرت لتقابل إلى حد بعيد لفظة (الموت) ولهذا عندهم كل مرحوم ميت، وكل ميت وَجَبت الدعوة له بالرحمة وتأتي استعارتنا لمصطلح (المرحوم) في هذا المقال لوصف من مات من الحكام بيولوجيًا أو سريريًا أو سياسيًا. أما رحمة الله فقد وسعت كل شيء.

وعودة إلى تهمة تحميل (المرحوم) المسؤولية في حوادث المرور الأليمة يلاحظ سرعة تأكيد البراءة أمام ضحية لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، وتحت هذا البند تمضي الأمور في قانون مرور المدن الكبرى بأقل الخسائر على السائقين (والحي أبقى من الميت) أو هكذا هم يقولون، وفي بلدان التخلف الاجتماعي والسياسي سنجد تطبيقات عديدة لهذه المقولة تختلف مشاهدها وحيثياتها لكنها تتفق في تلبيس (المرحوم) بأكثر مما يستحق متجاوزة بذلك حوادث المرور والأمثلة في التاريخ القريب والبعيد كثيرة فمثلا تجد الحاكم الجديد في الأنظمة العربية الجمهورية يتعامل مع منظومة من سبقه في الحكم بحسب الكيفية التي وصل إليها ولونها، فإذا كان بانقلاب أبيض فغالبا ما يتحصل (المرحوم) على نفس محدود في قبره إلى أن يتمكن الجديد المتسلط فإذا القبور تنبش، والعظام تبعثر وهي رميم . أما إذا كان الانقلاب أسود أو أحمر (فالمرحوم) وأهله يحصلون على

(نصيبهم) غير منقوص فوق الأرض وتحتها منذ أول ثانية من الزمان. أما إذا تسلط على الناس مرحوم برتبة (سريري) أو بآلية إعادة التدوير فتلك الطامة الكبرى لو كانوا يعلمون.

وفي مثل هذه الأجواء يؤسس المتسلط الجديد مجده الخاص بعد أن يحمل زملاءه السابقين أكثر مما يستحقون، وتتصدر الواجهة مصلحة الشعب العليا التي سيحرص عليها آناء الليل وأطراف النهار يسنده في ذلك جوقة جاهزة عابرة لأصحاب القرار في كل زمان مهمتها تضليل الناس وتلميع الزعيم حتى يقوم زعيم غيره يبحث عن مجده الخاص، وعشيرته الأقربين، وبهذا تدور الشعوب حول نفسها كثور الساقية بلا هدى أو سراج منير، ويتكرر إنتاجها للبدايات تلو البدايات، وتتوقف كثيرا عند ماضيها تمجد ما هو بعيد منه، وتهدم ما هو قريب دون الاستفادة من تجاربها، وتراكم خبراتها والبناء على الصحيح منها، لهذا فإن ازدهار الشعوب وتقدمها لن تصنعه قبضة الحاكم المستبد الذي يشغل نفسه بالبحث عن الذرائع التي يستر بها عيوبه، ويحيل خيباته إليها.

وهكذا كلما غابت الشفافية عن أنظمة الحكم غابت الحقائق، أو يتأجل البوح بها إلى حين من الدهر. يذكر أن الرئيس السوفيتي (نيكيتا خروتشوف ١٩٥٥-١٩٦٤م) انتقد السياسة الدكتاتورية للرئيس ستالين، وقسوة مدة حكمه ثم فتح المجال للمناقشة المباشرة أو عن طريق الملاحظات المكتوبة وتوقف عند سؤال مكتوب غير معروف اسم صاحبه يقول للرئيس السوفيتي: أين كنت يا خروتشوف عندما كان ستالين يفعل تلك الجرائم؟ فسأل عن صاحب السؤال فخيم الصمت فكانت إجابته: أنا كنت بجانب صاحب هذا السؤال، وإذا وصفت الإجابة بالمقنعة أو حتى الذكية فإن الرئيس خروتشوف كان ينتمي لثقافة (لا صوت يعلو فوق صوت الحزب أو الزعيم) ولذلك حالت تلك الثقافة دون ظهور الكلمة الحرة المخلصة، وحبست أنفاسها في انتظار وصول الزعيم إلى مرتبة (المرحوم) لتبقى فقط إشارة البدء من البطل الجديد والجوقة جاهزة لتحميل (الجثة) كل الخطايا والمثالب.

المؤرِّخ الملاحي ... لسانك حصانك

قد يأتي على الإنسان حِينٌ من الدهر يدخل في تجربة أو موقف يكون له صدى في وجدانه، وأثر في أعماقه أكثر من أي زمن آخر، هذه المواقف قد تكون مشهدًا حزينًا، أو خبرًا مبهجًا، أو كلمة صادمة، أو نصيحة نافذة، فنحن كم نسمع من نصائح، ومواعظ، وكم نقرأ من محاسن الكلم، التي تحثُّ على رباطة الجأش والتصرُّف السليم، ولكنْ تتفاوَتُ الاستجابة للمواقف بعوامل ترتبط بسيكولوجية الأفراد، وخبراتهم في الحياة، ومحكومة بعوامل كثيرة.

وكما أن الشعوب المندفعة إلى مآلات غير منضبطة لا تنتبه إلى سوء المصير إلَّا (بعد خراب مالطا)، فإنَّ هناك أشخاصًا لا يتعلَّمون إلَّا بعد أنْ يَمُرُّوا بصدمات وعثرات استثنائية تكون بمثابة جرس إنذار (وكل دقة بتعلومة) كما يقول الحضارمة بلهجتهم الدارجة، وكثير من الشعوب تلجأ إلى التاريخ تلتمس منه الحكمة؛ بوصفه مستودع التجارب الإنسانية، لكن الشعوب التي تقرأ التاريخ ولا تتدبَّره حالها كحال الأفراد الذين تشبعوا بالخُطَبِ الرنَّانة التي تحثُّ على مكارم الأخلاق منْ غيرِ أنْ يكونَ لها أثَرٌ أو تطبيق في سلوكهم، بخاصة عندما تصدم بمشكلات واقعهم المعيش، وغالَبُهم العرب بإدمان قراءة التاريخ منْ غيرِ إنعامِ النَّظرِ في مراميه، لهذا تَجِدُهم يقعون فريسة سهلة لمَنْ أراد بهم الشرَّ من خلال استدعاء التاريخ بغرض الفتنة وخراب البلاد، وفساد العباد، ولكن العرب ـ ليس بدعًا في هذا المضمار. وحتى الغرب الأوروبي لم تسعفهم حِكَمُ التاريخ في الحدِّ من صراعاتهم المذهبية والاستعمارية، وما الحربان العالميتان - اللتان تسبَّبتا في وفاة ملايين البشر. عنّا ببعيد.

وقريبٌ من هذا وفي باب الصدمات التي لها أثَرٌ إيجابيٌّ في حياة الناس صار لنا موقف مع المؤرِّخ عبد الرحمن الملاحيّ رحمه الله، وقبل استعراض هذا الموقف تجدُرُ الإشارة إلى أن الأستاذ الملاحي- الذي نال قبولًا مجتمعيًا لافتًا - تقلّبت به سبل الحياة، وتشعّبتْ مشاربُها بين العمل في سلك التدريس، والعمل الإداري، والإسهام الثقافيّ الإبداعي، ثم التفرُّغ للكتابة التاريخية، بَيْدَ أنَّ هذه التفرُّعاتِ كمَا قدْ تَبدُو لم تكنْ تمضي معزولةً عن بعضها، بل تداخلتْ في شخصيته؛ بحيثُ يصعُبُ الفصلُ بينها، لكنَّه اشتهرَ بالكتابة التاريخية وعشق التراث جنبًا إلى جنبٍ مع نشاطه المجتمعي الوطني، وعمله الرسمي.

وهناك مِيزَةٌ مُهِمَّةٌ تَجِدُها في شخصيّة الملّاحي وعلاقته المنفتحة مع زُوّارِهِ وأصدقائه وتلاميذه، فليس غريبًا أنْ تجدَ في مجلسِ الملاحيّ السلفيَّ، والصُّوفِيَّ، والليبراليَّ، وغيرهم. كان يرى أنّ نقاط الالتقاء بين الناس أكثر من نقاط التباعُد والتشاحن، وأن الأصل في العلاقات بين الناس هو احترام الاختلاف، وتقبُّل وجهات النظر لهذا حرص على أن يكون على مسافة معقولة من محيطه المجتمعي ممَّا أكسبه مكانة سامية في قلوب مَنْ عرفوه، واقتربوا منه، وأضفى على مجالسه حالة خاصة من الاحترام والتبجيل.

وبهذه المعرفة وقد كُنْتُ مع ثُلَّةٍ من الأصدقاء نُرَكِّزُ في أحاديثنا الوديَّة معه على ماله علاقة بالتاريخ والثقافة والهمّ المجتمعي، ولا تخلو الجلسات من سَرْدِ الحكايات، وحديث الذكريات، والمواقف الطريفة، وعلى أية حال كانت لي مع المؤرِّخ الملاحي عادةٌ حرصْتُ على استمرارها إلى أيامه الأخيرة في هذه الدنيا، وهي التواصُلُ عبر الهاتفِ في ساعةٍ محدَّدةٍ، ويومٍ من الأسبوع متفق عليه، وغالبًا ما أوافيه بالجديد في النشاط الثقافي في مدينة المكلا وأخبار أصدقائه في الحرف والكلمة والمواقف المجتمعية والوطنية،

وكنت أتعمَّدُ تجنُّبَ الحديثِ عن نشاطٍ علميٍّ كان يتابِعُه عَنْ بُعْدٍ وكنْتُ طَرَفًا فيه، لكنَّه تعثَّر لأسبابٍ خارجةٍ عن إرادتي، ومع تكرار تساؤله وإلحاحِه اضْطُرِرْتُ في البَوْحِ عن ذكر الأسباب المتعلِّقة بالشخص المتَّهم بتأخير هذا النشاط، وبدأ الأمرُ وكأنّني بصددِ السقوط في فصل من الغِيْبَةِ الممقوتة في صديقنا المشترك، فبِسُرعَةٍ حَرَفَ الحديثَ إلى وادٍ بعيد، وشعرْتُ أنّه تركني متعمِّدًا في شعبٍ خَلِيٍّ... صحيح الملاحي لم يقمْ ناصحًا لكنَّ رسالته وصلتْ في حينٍ من الدهرِ بأقوى من طلقات المدافع، وأسرعَ مِنْ أزيزِ الطائراتِ، تعلّمْتُ بها درسًا راقيًا تغلغَلَ في شراييني بَرْدًا وسَلَامًا..

* * *

"كُل قرصك وادخل خُلْصك"

عزيزي القارئ.. العنوان لا يدخل في باب فعل الأمر عليك إنما هو من الأمثلة الحضرمية (النصائحية) ربما كان المعادل الموضوعي أو المقارب له ما يتردد عند الكثير من الشعوب العربية في قولهم: (كُن نملة تأكل سكر) وبلهجة الحضارمة: (قع ذرة تأكل سكر)، ورغم أن هذه المقاربة قد تؤدي الغرض منها لكن لا بأس من فك شفرات لفظتي (قرصك- خلصك) أما قرصك فهو رغيف الخبز المعروف، ويقصد بـ (خلْصك): جحرك أي مكان سكنك، ولأن لفظة(خلصك) تحيل عادة في الثقافة الشعبية إلى الفتحات الصغيرة، والتشققات في الجدران والسطوح حيث مأوى الحشرات، فإن العنوان (النصيحة) أقرب إلى الشتيمة منه إلى النصيحة لقوم يتفكرون.

سيقول البلغاء من أصحاب هذه النصيحة (قرصك- خلْصك) إن الحكمة تقتضي في أوقات معينة أن يضرب الإنسان على نفسه الذلة والمسكنة حتى يسلم من الشر والأشرار وأن النجاة والخلاص في (الخلوص) وبمنطق هؤلاء البلغاء غير المعلن وامتداداً للنصيحة فإنه يجب على المنصوح التعامل مع ما يجري خارج (خلْصه) وكأنها أحداث في مجرة فضائية بعيدة أو في دولة شقيقة في أحسن الأحوال.

وتسود هذه الثقافة التي تدعو للخنوع غالبًا في المجتمعات المستبدة والمتخلفة حيث تلقي الفوضى فيها بأطنابها، ويضعف الأمن العام، ويختل ميزان العدالة أو يغيب، وفي حضرموت كبقية البلدان التي مرت بمراحل التخلف والاستبداد ظهرت ثقافة (الخلوص) وبخاصة عند صنف منهم لا يستطيعون ضربًا في الحياة، ولا يذودون عن أنفسهم اعتداءات المعتدين، ومع هذا نجد أن ثقافة الخلاص الفردي حاضرة في

العقلية الجمعية لهذا يُسمع على سبيل الحكمة وفي مناسبات معينة القول : (من خاف سلِم) بيد أن لفظة الخوف هنا أقرب من حيث الدلالة إلى لفظة الحذر الإيجابية، وقد تتداخل اللفظتان (الخوف - الحذر) من حيث الفهم والفعل لكن الإفراط في الخوف يسحب صاحبه إلى (الخلوص) بينما الحذر يدفع إلى الأخذ بالأسباب وعناصر الحيطة التي تؤدي إلى السلامة أو تقليل نسبة المخاطر، وعلى العموم فإن الاستجابة للمواقف ترتبط بتركيبة الشخص نفسه وبالثقافة الخاصة بالتراتب الاجتماعي، ففي داخل هذه التراتب توجد ثقافة تدعو إلى الدفاع عن النفس والأهل والمال بل أحيانًا تشجع على الاعتداء والعدوان.

(والخلوص) أو الجحور ليست بالضرورة مساحتها ضيقة بل قد تصل مسافاتها إلى آلاف الكيلومترات وقد تضم دولًا وشعوبًا، وبإطلالة سريعة على وطننا العربي وأمتنا الإسلامية سنجد أن منهم من مكثوا في (خلوصهم) أو كهوفهم قرونًا عديدة من السنين من غير أن يتقلبوا ذات اليمين أو ذات الشمال إلا قليلًا، حتى جاءتهم جحافل المستعمرين الأوروبيين، وسيطروا على الوصيد ثم قاموا لهم ناصحين أن أبقوا على (خلوصكم) ففيها خلاصكم لو كنتم تعلمون، وحقيقة الأمر فإن المستعمرين لم يخدعوهم بل كانوا أنفسهم يخدعون.

يا قوم: إن العدالة هي الحرية والكرامة والأمان، وإن التخلف يدمر المستقبل ولا يصنع الحاضر ولا يبني الإنسان. يا قوم: غيروا ما بأنفسكم حتى يغير الله ما بكم، يا قوم: متى سنكون ضمن الفعل الحضاري الإنساني؟ ومتى سنفرح في أوطاننا ولا نخاف؟ يا ناس: خلاصكم ليس في (خلوصكم) يا ناس: (خلوصكم) هي قبوركم.

* * *

"السناوة ولا جاوة"

يغادرون الوطن مكرهين، يحملون معهم وطنًا يسكن في دواخلهم، يبدو لهم أنه في صدورهم أكبر ممن في الوطن يسكنون، لا يخامرهم الشك في أنهم سيعودون عندما يتغير الحال غير الحال أو هكذا هم يحلمون. ويتطلع الذين في الوطن إلى الاستقرار والأمان والازدهار أو هكذا يتمنون. لقرون عديدة كان هذا حال حضرموت والحضارمة فهم بين مهاجرين يسيحون في أرض الله، وبين مشاريع مهاجرين، المشروع الشخصي هو الطاغي، وسط تلك الحالة الغير مستقرة توجد مساحة سحيقة تحكي قصة درامية طويلة معجونة بالدموع وبالآهات والألم والمسكنة والفشل والنجاح. فهل عجزت بلاد الحضارمة أن تكون ملاذًا آمنًا لأهلها؟ وهل قدر لحضرموت أن تكون أقرب إلى الأمنية والحلم، ومحطة للرحيل؟

وعوضًا عن البحث عن إجابات للتساؤلات الملحة زخرت ثقافة الهجرة الحضرمية بالأمثلة والأشعار والمقولات التي تدافع عن الهجرة أو تلك التي ترفضها وعلى سبيل المثال يقول الرافضون للهجرة: (السناوة ولا جاوة) والسناوة: هي طريقة رفع الماء من الآبار بوساطة الحيوان وأحيانًا الإنسان وذلك لري الأرض. ويقصد أصحاب هذا المثل أن البقاء في الوطن تحت الظروف الصعبة أفضل من الهجرة إلى جاوة حيث الخضرة، والمطر. وهناك من يعطي للمثل بعدًا آخر بإضافة كلمة البحر: (السناوة ولا بحر جاوة) فتغيرت الدلالة وصار وكأنه خطاب من الآخر بالتشجيع بالبقاء في الوطن بفوبيا مخاطر البحار حتى لا يغادر الفلاحون مزارعهم.

وفي المقابل يرفع المهاجرون من روحهم المعنوية ويرددون من الأشعار والأمثلة ما يشجع على الهجرة وما يؤكد صحة قرار مغادرتهم الوطن من ذلك المثل الرمزي (ما يبقى في السوق إلا خس [الرديء] الجلب [الغنم]، فيرون أنفسهم أصحاب الروح الكبيرة والهمة العالية وغيرهم: خاملون، قليلو الحيلة، وبلا طموح، وفي النصين (السناوة - الجلب) إشارات تعّبر عن وجهتي نظر متضادتين، وعلى ما يبدو من القسوة في طرح أصحاب (الجلب) اتجاه أصحاب (السناوة) فإن في باطن هذا المثل خطابًا داخليًا أكثر منه خارجيًا يعوض به المهاجر حالة الخنوع في بلاد الناس التي يواجهها (فالجلب) تدرك قبل المغادرة، وبعدها إنها لن تجد في بلاد الناس السهول المفتوحة ولن تكون الطريق مفروشة بالورود، وهنا يتفق الطرفان على أن: (من خرج من داره قل مقداره).

ويبدو لنا أن ثقافة الهجرة تقوم على ثلاثة مفاهيم أساسية هي: الرزق، والأمان، والكرامة. والترتيب هنا متعمد من حيث الأولويات، ولهذا تجد الأغلبية منهم تقول (بلادك حيث ترزق فيها وليس حيث تولد)، والمقابل لذلك وليس في الضد منه تلك النصيحة الشهيرة: (مال ما هو في بلادك لا لك ولا لعيالك). وهناك من يكون عامل الأمان الذي فقده في بلاده مقدمًا على عامل الرزق، وقد تجتمع أو تتداخل هذه العناصر بوصفها عوامل دافعة للهجرة لكن بنسب متفاوتة من حيث الأولويات ربما مفهوم الكرامة بمعنى البحث عن وطن تسود فيه الحرية وسيادة القانون تمثل حالات نادرة لا تتسق مع عوامل الهجرة التقليدية الطاغية (الرزق - الأمان). ومعروف أن مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان تعد في بلدان العالم الثالث من الترف غير المباح إلا ما رحم ربي، وحتى الأمان الذي قد ينشده المهاجرون بعيدًا عن أراضيهم فهو يغيب بالهواجس والتوجسات الدائمة من توقع تغير قوانين الهجرة والإقامة فهم طال الزمن أو قصر مصنفون أجانب مع الشعور المباشر وغير المباشر بالنظرة المتأرجحة

تجاهم بوصفهم مزاحمين لأهل البلاد الأصليين في الرزق، والوظيفة، والمدرسة، والطريق، لهذا هم يتحركون باستراتيجية المسكنة (يا غريب قع [كن] أديب).

لقد كانت أرض الله واسعة ومفتوحة أمام الحضارمة فهاجروا إليها بحثًا عن الرزق والأمان والكرامة وغيرها. كان موسم الهجرة القديم يتجه جنوبًا في بلدان حوض المحيط الهندي، ثم تتفرع مسارات تحركاتهم شرقًا وغربًا وشمالًا عبر البحر الأحمر إلى الحجاز وما بعدها، وإلى منتصف القرن العشرين كانوا يجدون في تلك المساحة الكبيرة مجالًا خصبًا للحركة والاستقرار، وبعد الحرب العالمية الثانية ومع ظهور الدول القومية انتهى عصر البحار والمحيطات المفتوحة وتقلصت خيارات الهجرة باستثناء بلدان الجزيرة العربية الفتية فاطمأنوا بها وصارت وجهتهم والأقرب لهم من حيث وحدة الدين واللغة والتداخل القبلي والجغرافي والتاريخي بل المصير المشترك، وهنا حطوا عصا الترحال حيث الخيار الوحيد أو المحطة الأخيرة.

قد يعتب البعض على إخواننا العرب وقد يلومونهم على إجراءاتهم التي تتعلق بقوانين الهجرة الأخيرة التي أزاحت غير المواطنين من مهن معينة وتطالب برسوم إقامة تصاعدية لكن هذا ليس الغرض من موضوعنا ثم هي بلدانهم وهم أحرار فيها كما قد يقول البعض الآخر، وعلى أية حال فإن آخر معاقل الهجرة وخياراتها صارت محدودة جدًا، والأهم من ذلك لا بدَّ من مغادرة دهاليز الجدل العقيم الذي استنزفته قرون التاريخ السحيقة فالأمر صار اليوم أكبر وأعمق من مجرد وجهات نظر لهذا علينا مواجهة استحقاقات الحاضر الملحة، ورسم تطلعات المستقبل المنشود، بالأعمال الصادقة المخلصة، والتخطيط العلمي السليم، لا مجال لثقافة اللوم، ولطم الخدود (ولعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها....).

"دخل عيف وخرج زين"

يقول العرب: (الذي أوله شرط آخره نور)، ويردد الحضارمة ما يقوله العرب، لكنهم في ثقافتهم الشفاهية الشعبية لهم تخريجاتهم الخاصة لهذا المثل كما ورد في العنوان المتسنم هذا المقال، وبمقارنة يسيرة بين النصين يلاحظ استبدالهم لفظتي (شرط - نور) بـ(عيف - زين)، صحيح اختلفت الكلمات لكن المعنى واحد. ربما يبرز تساؤل: لماذا آثر الحضارمة في النسخة الحضرمية من هذا المثل الصيغة الحادة (دخل عيف) عوضًا عن الصيغة الملطّفة (شرط - نور)؟ من الصعوبة بمكان إيجاد حلول جاهزة لمثل هذه التساؤلات، ولكن لفهم شخصية شعب من الشعوب، أو جماعة من الجماعات البشرية لا بد من دراسة الكثير من التفاصيل، من أهمها الجغرافيا، والتاريخ، والثقافة الشعبية الشفاهية، والمكتوبة والمعتقدات.. إلخ، وقد تتشابه الشعوب في توصيل فكرة ما، أو توضيح مغزى معين من مثل، أو قول مأثور، أو حكمة بالغة، ولكن في ثنايا ذلك توجد مساحة عند الجميع، تترك فيها البصمات المعجونة بالخصوصية أو المحلية. كما أنه ومن الأهمية بمكان معرفة دلالة لفظة (عيف) كما يقصدها الحضارمة، وليس من حيث الاشتقاق اللغوي، الذي يعني كما في بعض المعاجم: (عافَ الرجل الطعام والشراب يعَافُه عِيَافَةً إذا كرهه فلم يشربه، فهو عَائِفٌ)، والشخص العيف في اللهجة العامية الحضرمية هو: سيء الخلق، والمكروه اجتماعيًا، وما شابه ذلك، والعيف في الجماد: الرديء البالي، وما شابه ذلك، ولهذا فإن إسقاطهم أو اشتقاقهم للفظة (العيف) قريبة من قريب.

وعودة إلى التساؤل الذي ما يزال محلقًا، ويبحث عن مستقر، فإن تأكيد الحضارمة على أن تكون البداية سليمة مهما كانت تفسيرات الطرف المقابل ينبع من حرصهم القوي على ألَّا تحدث مشاكل، أو منازعات؛ لتنتهي الأمور والقلوب معمورة بالحب والتفاهم والجمال، وهي نهاية تؤكدها الكلمتان الأخيرتان في النصين (نور - زين)، وربما هذا مما يقربنا لفهم محدودية حالات التنازع والمشاجرات المسجلة رسميًا في بلادهم، وحيث ما حلوا وارتحلوا، ونستنتج من ذلك أن الشخصية الحضرمية تميل إلى المهادنة إلى الحد الذي قد يفهمها الآخر بأنساق متنوعة، ومما يؤكد ذلك قولهم: "إذا جاء إلى تحت الدار ما شي منه تعذّار"، أي أنه من أراد الاعتداء عليك، ووصل إلى عتبات منزلك، فلا مناص من المواجهة، وهي إشارة تدل على تحليهم بالنَّفَسِ الطويل، وتوضح أن قواعد الاشتباك عندهم اضطرارية ليست مزمنة. لهذا حدد المثل خط الدفاع الاستراتيجي تحت باب الدار، وهو خط -من الناحية العسكرية- محفوف بالمهالك.

ولا تخلو المجتمعات البشرية من النزاعات البينية مهما وثّقت العهود، وسجلت الشروط، فهناك تفاصيل يدخل منها الشيطان كما يقولون، وإذا دخل الشيطان، وتمكّنت قواعده اشتعلت الأطماع، وتزيَّن الباطل، وغابت فضيلة التسامح، وتقدمت الأنانية بكل أشكالها القبيحة، والأمثلة على ذلك كثيرة، لكن غالبًا ما تكون آثارها محدودة؛ إذ لا تتعدى محيط الأفراد المتنازعين. لكن المصيبة، أو قل: الطامة الكبرى عندما تُؤسَّس العلاقات بين الدول على أرضية غير سليمة تغلب عليها العاطفة وتغيب الخبرة السياسية، ويحضرني عادة المثل (دخل عيف..) عندما تأتي مناسبة ذكر الترتيبات الأولية لنموذجين سياسيين للوحدة والاتحاد لدولتين معاصرتين، ونقصد الوحدة اليمنية والاتحاد الألماني. ربما كانت المقارنة ليست في محلها، ولكن لا بأس من الإدلاء بدلونا من وجهة نظر متابع، وليس بمنظور المؤرخ، الذي لا ريب سيلهث

وراء الأبعاد والحيثيات؛ ففي اليمن تم الدخول إلى الوحدة بناءً على اتفاقٍ، كُتب على صفحتين، دبّج في ظاهره بأفكار عامة ممتازة، وفي باطنه فخخ بعوامل دفع سريعة، وليس بعوامل تمكين آمنة، ولهذا وفي وسط صخب مهرجان الفرح الآني غابت الحكمة اليمانية وغير اليمانية. أما الألمان فقد دخلوا إلى مشروع دولتهم الاتحادية بثقافة (العيافة) حسب الصيغة في نسخة المثل الحضرمية، ولهذا وثيقة الاتحاد الألماني وصلت إلى بضع آلاف من الأوراق، دوّنت بهدوء تفاصيل التفاصيل، بما يمكّن من الدخول المستنير والآمن، ويحفظ مصالح الجميع، وبهذا يمكن القول: (إن الحكمة هنا ألمانية). والحديث ذو شجون، وحيز المقال لا يتسع للمزيد.

بقي القول إن الألمان (الكفار) دخلوا إلى اتحادهم الوطني بخطوات واقعية، وبنوايا وطنية صادقة، ومخلصة، بينما هرول الحكام (المسلمون) إلى الوحدة اليمنية في غفلة من التاريخ، وبمخزون من العداء، والشك، والأطماع، والنوايا السيئة، والنتيجة كما يقول الحضارمة بلهجتهم العامية: (دخلوا عياف وخرجوا عياف).

* * *

فتبينوا

في الثقافة الشعبية الحضرمية ومما يدخل في باب التأكيد على تمحيص الأمور تستحضر عادة النصيحة الفورية (مصمص العجم) وذلك لمن أراد أن يتخذ قرارًا مهمًا في حياته مثل مصاهرة عائلة أو كسب شريك في العمل أو اختيار صديق أو التحقق من نبأ ..إلخ، والمعنى الحرفي لتلك المقولة (مصمص العجم) هو : التوجيه بتخليص نواة البلح من بقايا مذاقها الحلو أي التنظيف بالمص تنظيفًا تامًا. أما المعنى الاصطلاحي المشحون بالنصيحة فيقوم على الدعوة بأخذ الحيطة والحذر واستيعاب المسألة من كل جوانبها. ولهذا هم يقولون في معنى مقارب (قايس عشر وأقطع مرة) فلا ضير مادام هناك متسع من الوقت في تقليب الأمور قبل عملية القطع والفصل وهو قرار تنفيذ وليس قرار تدبير.

وتحيلنا لفظة (فتبينوا) عند سماعها في سياق مقارب إلى الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ والتبيّن هنا بمعنى التحقق والتأكد من صحة الأخبار، والإشارات الربانية العظيمة في هذه الآية تعطينا دروساً عميقة تتعلق بأهمية التروي قبل الحكم على الأمور أو تنميطها بكيفيات لا تساعد على اتخاذ القرار المناسب.

في العلاقات البينية تجد معظم الخلافات والخصومات تقوم على أساس الظن والوهم من زاوية نظر خاصة بأصحابها وليس على أساس الفهم والمصارحة الهادئة، وأحياناً تبلغ بالبعض الأوهام والظنون مبلغ التصديق بها وجعلها مسلمات تبنى عليها مواقف مغلفة بالظلام، وبثقافة لا تعترف بفضيلة التبيّن وغالباً تعشش هذه السلوكيات عند الشعوب

الفارغة حيث يدمن أفرادها التفاصيل التافهة ويتركون ما ينفعهم في دنياهم، وهكذا وفي غياب ثقافة الحوار، وسطحية نظرة الناس إلى خُلق التسامح والمسامحة - رغم ما يرددون من أن المسامح كريم - تتلبد الغيوم بالمشاعر السلبية البعيدة عن روح الإسلام السامية وقد تهيأ فرص عند المتخاصمين المحظوظين وهم على قيد الحياة في تبيان الحقيقة التي تتفكك بمعرفتها الأزمات، وتتغير الأحوال إلى المحبة التي تأتي بعد العداوة، وهناك من يغيب في اللحود وفد حملوا مع ما حملوا أوزار الظنون الآثمة وتداعياتها.

وبين مفردتي (فتبينوا) القرآنية و(مصمص العجم) الشعبية تقفز من العقل الباطني بين فينة وأخرى طرفه سمعتها في طفولتي من رجل مسن لا يبدو عند عرضها رغبته في الفكاهة رغم ذلك كما كان ظاهر الأمر، المهم تدرج فهمي لها بتقادم السنين، كما سنوضحه، وجاء في الطرفة:

"وقف أحدهم وسط حلقة من الرجال المكفوفين وهز بكيس به نقود معدنية، ويردد وهو يلوّح بالكيس في أكثر من اتجاه، أمسك هذا الكيس ووزعه على زملائك دون أن يسلّم النقود لأي أحد من الجالسين وغادر الحلقة والنتيجة عراك وخصومة بين (المبصرين) كل يتهم زميله بالاستحواذ على الأموال، وقد مرَّت مع هذه الطرفة أو لعلها الحكمة من حيث الفهم والاستيعاب بثلاث مراحل الأولى يمكن وصفها بمرحلة (النكتة) التي تستدعى في أجواء السمر والفرح دون الإدراك لمعانيها البعيدة. أما المرحلة الثانية فقد عددتها في باب الحكايات التي تهدف إلى (الموعظة) التي ترمي إلى نبذ السخرية والاستهزاء بمصائب الناس، وتحث على الإحساس بنعمة البصر، والدعاء للعميان بالشفاء والعافية وعظيم الأجر عند الله، والمرحلة الثالثة هي مرحلة (الحكمة) التي تدعو إلى عدم الانخداع بظواهر الأمور، والتنبُّه إلى أن ليس كل ما يلمع ذهبًا، وأن الراضة من الرحمن والعجلة من الشيطان، وأن الحقيقة بنت البحث والتقصي والتأني.

الحكمة من أفواه المجانين

حكايتنا نحن العرب مع المجانين حكاية مركبة ومتناقضة؛ فتارةً نجعل منهم عباقرة ومصدرًا من مصادر الحكمة، وتارةً نشنّع عليهم ونستبشع حالتهم، ونعدها أكبر من مصيبة الموت، لهذا نقول: (لا تبك على من مات لكن ابكِ على من فقد عقله)، وحتى المثل الشهير (خذوا الحكمة من أفواه المجانين)، صِيْغَ بحذر بحيث جعل الحكمة من الأفواه وليس من العقول. وعلى أية حال فإن ظاهر المثل غير باطنه؛ فحكمة المجانين ما هي إلا مقولة صريحة تدحرجت من اللاشعور، أو من العقل الداخلي، ثم مضت بسرعة البرق دون حسيب أو رقيب.

كما أن احتساب كلام المجانين بالحكمة ما هو إلا خدعة يعزي بها (العقلاء) أنفسهم المهزومة من الداخل، فعقولهم تزدحم بالآراء السديدة، والمقترحات المفيدة، لكنهم يخادعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وهم يشعرون. لكن في مجتمع العرب ومن شابههم تميل الحكمة مع الحكومة والحكام، وحيث ما مالوا تميل، والرأي المغاير لرأي الحاكم حتى إن رصع في ديباجته بالولاء والطاعة فإنه يحسب ضمن الآراء الضالة المضلة، ويصنف بأنه يطعن في رجاحة الحاكم والحكومة، وفي مساعيها الخيرة، وقد تتصاعد التهم على (العاقل) لتصل إلى خدمة أعداء الوطن، وهنا لا ملجأ له بعد الله ولا منجى إلا (قبوله) بتهمة الجنون، ثم عليه أن يخضع لتبعات ما يثبّت التهمة ليؤكد براءته.

لهذا يقول الحضارمة: (غرام يفك عليك ولا عقل يحنبك)، بمعنى: جنون يخرجك من أزمتك ومصيبتك أفضل من عقل يورطك، وتحضرنا هنا حكاية (مجنون) بني عجل مع الحجاج بن يوسف، عندما سأله الحجاج عن رأيه فيه، وهو لا يعرف الحجاج،

فقال الرجل: ذاك ما ولي العراق شر منه... فقال الحجاج: ألم تعرفني؟ أنا الحجاج، وبسرعة سأل الرجل الحجاج وقال له: ألم تعرفني؟ قال: لا، قال: أنا فلان بن فلان مجنون بني عجل، أصرع كل يوم مرتين... فضحك الحجاج، وقبِل بمزاجه (لعبة) الجنون..

وعند الحكام العرب عمومًا وما شابههم طالما هناك اعتراف رسمي ومجتمعي بجنونك فأنت في أمان، وكلمتك مرفوع عنها القلم، أما إذا سُجِّلْتَ عندهم من (العقلاء الأقحاح) فأنت مُتَّهم حتى تثبت غفلتك.

والأمثلة من أصناف المجانين في عالمنا العربي كثيرة، وبخاصة ممن خاضوا في الشأن العام، ووصّلوا رسائل (العقلاء) إلى الحكام بالمجَّان أو بأقل التكاليف. ففي حضرموت ظهر (الحكيم) عوض بن وبر (يرحمه الله)، المشهور بـ(عوض لعنة)، وعُرِفَ عنه الكرم في (الحِكَم)، وحتى عندما يصمت مع هواجسه الخاصة تجد البعض يستفزه لعله يلتقط ما يسره ويغيظ به الحكام، وتكمن أهمية (حِكم) عوض لعنة في أنها قيلت في مرحلة (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية)؛ حيث القبضة الأمنية القوية، وحيث تقوم بعض الاعتقالات على الوشاية أو الظن. المهم عوض في تلك المرحلة برز كأنه العاقل الوحيد من حيث الجرأة على تعرية ممارسات الحكام وانتقادهم، وهكذا ففي غياب فرص التعبير عن الرأي كان عوض لعنة يتكلم نيابة عن الجميع، وصار الناس يتناقلون ما يقوله وهم يضحكون، وأظنهم كانوا يضحكون على قلة حيلتهم، وثقل بلواهم، وشرُّ البلية ما يضحك، وأحيانًا يتقوّل بعض (العقلاء) على المجانين بإحالة عبارة تحمل نقدًا للأنظمة الحاكمة على (الحكماء)، وهو شكل من أشكال المعارضة غير المباشرة لعل حكامهم يفهمون ويصلحون أو يرحلون.

وفي أواخر ثلاثينيات القرن العشرين ظهرت في مدينة المكلا شخصية (امبيروك)، الذي تفوه (بالحِكمة) في عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي، وكانت القضية

الوطنية المسكوت عنها وقتئذ هي فرض بريطانيا معاهدة الاستشارة على سلطنتي حضرموت (الكثيرية والقعيطية)، وانقسم الناس إلى فريقين: مؤيد للسلطنة في تصرفاتها، ومعارض يتهم السلطان بأنه فرَّط في البلاد لصالح البريطانيين. أما (امبيروك) فكانت له لزمة يكررها بمناسبة، وغير مناسبة، وهي المثل المعروف (بنتك في الصندوق وأخبارها في السوق)، وفي مناسبة استغل امبيروك وجود السلطان في مكان عام بحضور المستشار البريطاني هارولد إنجرامس، وفي حضرتهما قال: «هل سمعتم الرجل صاحب الناقة، والكلب العقور الذي سافر وأوصى بأن يكون مدة غيابة لبن الناقة للكلب العقور، ولما عاد صاحبها من سفره أراد منع الكلب من الناقة ليكون لبنها له لكن الكلب تنمّر، وهدَّد صاحب الناقة بالافتراس فخاف صاحب الناقة فتركها للكلب العقور، ثم يقول للمجتمعين هل عرفتوه»، والحكاية هذه منقولة بتصرف من كتاب (ترجمة الزعيم السيد الحبيب حسين بن حامد المحضار، صـ٨٢- ٨٣)، لمؤلفه حامد بن أبوبكر المحضار، ويضيف المؤلف المحضار أن السلطان صالح كان يتلذذ بسماع الحكاية لأن (امبيروك) يعبّر عما لا يستطيع أن يقول مثله لإنجرامس. المهم الحكاية تثير شجون التاريخ... ومما يلفت النظر في (حِكمة) امبيروك أنه عبّر عن وجهة نظر الفريق المعارض للبريطانيين، لكنه انتقد صاحب الناقة وأظهره بمظهر الضعيف، وأنه بلا قرار.

وهكذا نحن العرب أحيانًا نتخفى وراء مجانيننا، ونفرح إذا عبروا عما يجيش في صدورنا، وما هو محبوس في عقولنا، وعلى كثرة (العقلاء) في أوطاننا فنحن أكثر شعوب العالم تمزقًا وضعفًا وهوانًا على الناس. فهل مصيبة العرب في قلة مجانينهم أو في كثرة عقلائهم؟

يا قوم... أطلقوا العنان لعقولكم... يا ناس ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

رزق جالس

يحلم الناس في كل المجتمعات البشرية بالجاه، والمناصب، والمال والمكانة الاجتماعية العليا، ويسعون إلى الوصول إليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولكن هذا الحلم الجمعي يمضي بالسنن الكونية التي تتوزع بموجبها الأرزاق المكتوبة عند الرزاق ولا يخلو مجتمع إنساني من تمايز ودرجات اجتماعية ترتفع أو تهبط في السلم الاجتماعي لاعتبارات غالبا خارجة عن إرادتهم لكنها محكومة بعناصر كثيرة متحركة بتحرك حركة التاريخ وتنوع المجتمعات واقتصادياتها واختلاف قيم المجتمع وأعرافه وعاداته، وثقافته.

وفي حضرموت عزز من النظام التراتبي عاملان هما النسب والوظيفة الاجتماعية، ولهذا انقسم المجتمع إلى ثلاث مجموعات رئيسة لها تفرعاتها وتراتبها الداخلي. المرتبة الأولى العليا وهم فئة السادة والمشايخ، واحتل رجال القبائل المرتبة الثانية، أما المرتبة الثالثة فهم الحضر (المساكين والضعفاء) بحسب الوصف المحلي.

وبين حاجة المجتمع لتنوع الوظيفة الاجتماعية وتبادل الأدوار لتحقيق المنفعة العامة، وتبادل المصالح والأرزاق (كرهاً أو طوعاً) وبين ثبات التراتب الاجتماعي عبر مسافات التاريخ كان للميثولوجيا كلمتها في المتخيل الشعبي الذي أرجع أسباب الانقسام الاجتماعي وحظوظ الناس في الرزق إلى حكاية موغلة في القدم عندما تسابق ثلاثة من أجداد الحضارمة للوصول إلى نهاية متفق عليها تحدد بموجبها مصير كل منهم، ومصير أحفاده وبحسب السباق والتنافس يكون نصيب الواصل الأول (كتاباً) ونصيب الثاني (سيفاً) والثالث (مسحاة) وهذه ترمز إلى العلم والقوة والعمل، فالذي وصل

الأول هو جد المجموعة الأولى الذي يمثلها السادة والمشايخ، والثاني صاحب السيف صار جد القبائل .أما نصيب الثالث فهو المسحاة (من أدوات الفلاحة) وهي علامة على فئة العمال (الضعفاء والمساكين) وكما حدد هذا التسابق الأسطوري المكانة الاجتماعية فإنه حدد طريقة الحصول على الحاجات الضرورية للإنسان (الرزق).

وجعلت هذه الأسطورة الساخرة من هذا التمايز كأنه قدر غير قابل للتحريك، وعزز من ذلك صرامة الزواج الأفقي، فتعالى الناس بعضهم على بعض وكل يرى فئته من زاويته الأفضل، والأعز، ولله في خلقه شؤون. وإذا أسهم أصحاب (الكتاب) في خلق نوع من التوازن المجتمعي بضبط حركة السيوف (عمل القوة) وتخفيف معاناة المساحي (قوة العمل) فإن (الكتب) ينالها أحيانا نصيبها من أذى السيوف عندما تنفلت من أغمادها لأسباب معظمها اقتصادية.

وخارج لعبة الاحتكاك فإن الغالب على المجتمعات تكاملية المصالح بين الحواضر والأرياف من خلال تعدد الوظائف الاجتماعية وتقسيم العمل والنظام التراتبي الذي حافظ على ديمومة بنية المجتمع التقليدية، وساعدت حرية تحرك (الكتب) على ترسيخ قيم ثقافية مشتركة، قبلها الناس وصارت عنوانا لهم، وعلامة دالة على كتلة مجتمعية بحدود جغرافية محددة. أما عن الكيفية العامة في الحصول على الرزق فكان الجميع - بنسب متفاوتة - يسعى ويشقى.

وفي مرحلة حضرموت الحديثة ظهرت فئة الموظفين المدنيين من كتبة ومدرسين وإداريين هؤلاء صار (رزقهم) يصلهم نهاية كل شهر بمبلغ معلوم ومن هنا جاءت المقولة المشهورة: "ما تسهل رزق جالس إلا لأهل الكتب والمدارس". ولاشك أنها ليست موغلة في القدم فهي مرتبطة بالمدارس ومخرجاتها، وهو أمر شهدته حضرموت بصورة لافتة

منذ بدايات النصف الأخير من القرن العشرين ولمعاناة العمل المهني والحرفي الذي يعتمد الجهد العضلي نُظر للموظف الجالس على كرسي في مكتبه في الظل، أو تحت المروحة الكهربائية بعين الاندهاش، والغبطة، وربما الحسد.

وفي مراحل لاحقة أصبحت الوظيفة المكتبية (رزق جالس) الهدف الأسمى الذي جعل القلوب تهفو إليها (وخليك مع المضمون) وعزز من ذلك قول إخواننا المصريين: "إن فاتك الميري تمرغ بترابه". وهكذا تغيرت لعبة التسابق من حيث الشروط والآليات والغايات وصار التنافس على كرسي الوظيفة الحكومية هو السائد، و من جلس عليه يناله نوع من الوقار، ويصير رزقه مضمونا، وبهذا اهتزت بعض دلالات الميثولوجيا القديمة في الوجدان الجمعي، وبرزت أساطير جديدة عند حفدة أجداد الحضارمة تطلعوا بموجبها إلى حياة الخمول، وتنكروا لخيرات بلادهم وبحثوا عن أرزاقهم في بلاد الناس، وهذه التحولات ظهرت في وقت كانت فيه الدول المتطورة والشعوب الحية تعلي من قيمة التفكير المبدع والعمل المنتج سواء كان فيه الإنسان جالسًا أو قائمًا، وعلى نقيض من ذلك أدمن العرب على ثقافة الجلوس في الكراسي لغرض النميمة على بعضهم البعض، وتمترسوا وراء أساطير التاريخ، وغابت النوايا الصادقة، وتعالوا على بعضهم البعض حد التكبر، ولهذا توارثوا كراسي لا بركة فيها ولا رزق .

* * *

"سبولة خير من مقلع"

في مسيرة الحركة الشعرية في بلاد العرب قيلت قصائد خلدت أسماء أصحابها مقارنة ببقية أشعارهم، وصارت تتناقلها الأجيال وتتذوق معانيها، وفي السياق ذاته نجد أحيانًا بيتًا شعريًا يشتهر من قصيدة يمثل علامة بارزة لهذا الشاعر أو ذاك، وقد يضيع اسم قائله، والنماذج كثيرة في عالمنا العربي، وفي حضرموت إذا نسي الحضارمة الشاعر الشعبي المكلاوي سعيد فرج باحريز وشعره (ت ١٩٨٧م)، فإنهم لن ينسوا قصيدته التي من أشهر أبياتها:

بغيت الصدق والواقع سبولة خير من مقلع

ونخلة ما تعشي الضيف قعرها لا تخليها

والقصيدة لها قصة مشهورة في مدينة المكلا فقد ارتجلت في سياق مساجلة شعرية في بداية سبعينيات القرن الماضي، عندما صارت حضرموت محافظة من محافظات (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) بعد زوال سلطنتيها القعيطية والكثيرية في عام ١٩٦٧م. كان الشاعر باحريز في الطرف الذي يحن لحكم السلطنات، وخلاصة فكرة بيت (السبولة): أن التمسك بالموجود على قلته أفضل من التطلع إلى القادم على كثرته، وبعودة إلى لغة النص أراد باحريز القول: إن السبولة الصغيرة المثمرة -يرمز بها إلى السلطنة القعيطية- أفضل من المقلع، وهو غرسة النخلة قبل إنتاجها للبلح (التمر)، وهو هنا كناية عن الجمهورية الجنوبية الناشئة.

تجدر الإشارة إلى أن فن المساجلات الشعرية الشعبية في حضرموت يعتمد في أغلبه على الرمز، وهو مساحة يستطيع الشعراء توصيل مواقفهم وانطباعاتهم تجاه

أحداث عصرهم، ويتسم بثيمات تكاد تكون معروفة عند عامة الناس لهذا يتفاعلون معها، ويصطفون مع هذا الشاعر أو ذاك بحسب النظرة إلى واقع زمانهم ومتغيراته، ولأن المزاج العام في مدينة المكلا تغير تجاه نظام الحكم الثوري الجمهوري ما بعد السلطنات لأسباب لا مجال هنا لذكرها، فإن قصيدة باحريز سجلت الموقف المعارض من النظام الجديد الذي برزت إشارات عن ابتعاده عن بعض شعاراته، وتوجهاته المعلنة، وقد استطاع باحريز بموهبته الشعرية التعبير عن هواجس الناس وتوجساتهم، لهذا انتشرت كلماته في أوساطهم انتشار النار في الهشيم كما يقال، ثم تجاوزت قصيدته لحظة الموقف والغضب والحنين إلى أن صارت أيقونة في الثقافة المحلية وحكمة ما يزال يرددها الأجيال بين فينة وأخرى، وهم يلتمسون طريقهم في رحلة الحياة الطويلة، وعند لحظات التوقف أمام تحديد الأولويات واتخاذ القرارات المناسبة تجاه المواقف الصعبة والمآلات الغامضة، وبيت باحريز الشعري قريب من المقولة المشهورة (عصفور في اليد خير من عشرة في الشجرة)، لكن مفردات باحريز الذكية المعجونة بالمفردات المحلية تغلغلت في الوجدان الحضرمي، وأضحت عنوانًا لمواقف سياسية، ومما أعطى للقصيدة قبولًا مجتمعيًا أنها توشحت بموقف الشجاعة لإلقائها في مواجهة طرف يمثل الحكم بهيبته ومهابته وقتئذ.

لكن النظام الثوري في الجنوب تطلع إلى أبعد من النخلة، وبخاصة عندما أعلن النهج الاشتراكي العلمي بالنسخة السوفيتية، وتوسع مفهوم الوطن المنشود عنده ليعم أرجاء المعمورة، وذلك تصديقًا لمفهوم (الأممية البروليتارية)، التي يتسق مع البيان الشيوعي المشهور (المانيفستو)، الذي دعا عمال العالم للاتحاد وتأسيس دولتهم العالمية، وتجاوزت هذه الشعارات العملاقة بمسافات ضوئية (سبولة) باحريز (ومقلعه)، وعندما فشل مشروع الأممية البروليتارية في عقر داره هرول الحكام في جنوب اليمن في وحدة

مع شماله، وذلك في سياق تاريخي ارتبط بالتنشئة القومية والحلم العربي الكبير لجيل خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وأمام بريق اللحظة، وضجيج العواطف غابت حكمة باحريز التي تدعو للتريث وتحث على عدم القفز على المراحل، لهذا لم يمض وقت طويل حتى تكشفت هشاشة تلك الدولة، وضعف أساسها، وندم المتسرعون.

وقد نبهت هذه التجربة المريرة -التي وصفها بعض ساسة الجنوب بالكمين التاريخي- أهل الجنوب إلى ضرورة العودة إلى وضعية (النخلة) بحسب استعارتنا لرمزية باحريز، ولا سيما بعد حرب صيف ١٩٩٤م، وفي حضرموت تجدد الجدل القديم في هذه الأيام بين أنصار السبولة وأصحاب (المقلع)، فهناك من يرى الخيار الأفضل أن تكون حضرموت دولة مستقلة، وأن هذا سيبعدها عن حلقات الصراع التي اكتوت به خلال نصف قرن كانت في معظمه في موضع الضحية أكثر منه في موضع القرار، بينما يرى أصحاب (المقلع) أنها ستكون أقوى ضمن الجنوب الذي ارتبطت معه بتجربة أقل مرارة، وأنها بحسب سياق الأحداث وتلاحقها وتداخلاتها صارت مع الجنوب في سفينة واحدة ومصير مشترك.

وإذا حيدنا مناسبة القصيدة وبيتها المشهور ربما سيقول قائل: إن دعوة باحريز تميل إلى الجمود وتتعارض مع فضاء التطلعات المشروعة والآمال المحفزة لحركة التاريخ وتطور المجتمعات، ونحن لا نرى ثمة تعارضًا خاصة إذا قرئ النص من داخله وحسب سياقه، وبمنطق: لكل مقام مقال.

وهكذا ستظل قصيدة باحريز حاضرة في مجريات الحياة اليومية في حضرموت، وسيتأملها الباحثون عن الحقيقة؛ لأنها أصيلة في الحكمة لا سيما عند أولئك الذين يستلهمون العبر من تجارب التاريخ، ويتفكرون في حركة حاضرهم ومشكلاته، ليتجنبوا المتاهات، وحتى لا يكونوا فريسة للندم في ساعة لا ينفع فيها الندم..

"إمّن الحضرمي على مالك..."

ذات يوم بغدادي تحاورت مع زميل دراسة عن موضوع البخل وما يوسم به أهل بعض المدن والمناطق العربية، وأوردنا نماذج، وكان ذلك الحوار مدخلًا مناسبًا ليسألني صديقي على استحياء، ومن باب الطرافة والتحقق عن مدى صدق ما يشاع عن بخل الحضارمة ولأنني متوقع طرحه رددت عليه -من باب تلطيف الجو- بنكتة منسوبة للحضارمة ولغيرهم عن البخل وبعيدًا عن حلاوة النكتة أو مرارتها، فكانت سعادة زميلي بروح النكتة وتسامحها أكثر من النكتة ذاتها.

وفي مناسبة مقابلة كتبت مقالًا نشر على مواقع التواصل الاجتماعي فندت هذه التهمة عن الحضارمة وتمترست معهم مدافعًا ومنافحًا، ومع هذا ولأن المقال تضمن إشارة على شكل طرفة لما ينسب عنهم من (الحرص القوي) وصلتني من أصدقاء رسائل عتاب بعضها شديد القوة صوّرت الأمر كأنه نوع من الخيانة الوطنية العظمى.

وحقيقة الأمر يضع الكثير من الحضارمة صورة نمطية ثابتة عن شخصيتهم العامة ويعدون المساس ببعضها مساسًا بكل الذوات الحضرمية، ونحن نقول كما يقول أجدادنا: "كل طعام بغشرها"، بمعنى لا يخلو كل مجتمع من وجود السلبي والفاسد وغير المهم، وإذا افتخر الحضارمة ببصمات سلوكية معينة أصيلة مغروسة في الوجدان الجمعي، فإنهم في الآن ذاته لهم عيوب لا يمكن نكرانها ولا بد من الإشارة إليها لمن تصدى بالدرس العلمي للشخصية الحضرمية (و كَفى المَرءَ نُبلاً أَن تُعَدَّ مَعايِبُهْ).

والحديث عن الصفات الإيجابية عند الحضارمة من رجل منهم ربما سيعطي الآخرين الحق في الجرح، ومع هذا سندلو بدلونا بموضوعية من خلال نص المثل وتداعياته الذي يقول : (إمن الحضرمي على مالك ولا تأمنه على عيالك)، ولن نخوض مع الخائضين المبالغين (مدحًا وذمًا)، وبداية تقتضي الأمانة الإشارة إلى أن صفة الأمانة من أشهر ما يشتهر بها الحضارمة لا سيما في بلادهم وفي مواطن مهاجرهم، وصارت هذه الميزة وما تزال مدخلًا قويًا لتقدمهم في الأعمال التجارية، واكتساب الحظوة عند أهل تلك البلدان، وفي رأينا أن المثل أعلاه يعد نصًا مهجريًا عربيًا بامتياز، فقد كانت الصناديق المالية في المؤسسات التجارية في معظم بلدان شبه الجزيرة العربية يفضل إسنادها إلى الموظف الحضرمي.

وحمل نص المثل في ظاهره نصيحة مغلفة بالمدح من طرف إلى الآخر المستمع. وفي باطنه تهمة واتهام، والتساؤل الذي يطرح نفسه هل الأمين يخون؟ وهل لرجل من قلبين في جوفه؟ الوقفات المتأنية ستساعد على فهم تداخلات النص وتناقضه بين المدح والقدح، وستبين أن هناك مساحة خفية بين ظاهره وباطنه قد ينظر لها بأكثر من زاوية نظر، فمن وجهة النظر الحضرمية يرون الكفة لصالح وضعهم في خانة المدح، وأن القدح ما هو إلا صيغة مبالغة لتأكيد ما قبلها، وأن أصل النص (المثل) الإشارة إلى صفة الأمانة أكثر منه التحذير من تهمة خيانة الشرف. وفي سياق مقارب يطلق العرب أحيانًا لفظة (الخبيث) أو (الماكر) على سبيل المدح لمن مكر مكرًا حسنًا لهدف نبيل بمواجهة مكر ماكرين.

أما وجهة النظر الأخرى في المثل فربما سترى أن بعض الحضارمة قد يجمع بين الأمانة وشبهة الخيانة، ولأن تهمة المال (الصناديق) يسهل فيها تأكيد الإدانة أو إثبات

البراءة من خلال مراجعة الحسابات فإن (أمانة) الشرف تهمة يصعب تأكيدها، كما أن صاحب الصندوق ليس المتهم الوحيد فيها، ولهذا أطلقنا عليها شبهة الخيانة ويبدو لنا أن نصيحة التحذير من وجهة النظر هذه هي الكفة الغالبة وليس الأمانة بمعناها النبيل الذي لا يقبل الانقسام لأن ما بعدها محاذير خطيرة تتطلب شاهدًا وشهيدًا.

إن الأمانة أو الشجاعة أو المروءة وغيرها من الصفات النبيلة، هي قيم تكتسب غالبًا بالتربية المجتمعية، وليست متلازمات خاصة بهذا المجتمع أو ذاك، بل هي سلوكيات يشترك فيها الناس بنسب متفاوتة وتواجه هذه القيم الكثير من التحديات مع تغير الأحوال. في (عصر القات) الدخيل على حضرموت اهتزت الكثير من القيم ومنها (الأمانة)، وظهر صنف سلبي من الحضارمة متعاط لشجرة القات الخبيثة (المخزن)، وكثير من هؤلاء تحوم عليهم شبهات الكسب الحرام، وبعضهم فاسد بيّن فساده، وقليل منهم يلجأ بكيفيات متنوعة إلى رذيلة التسول، وفي وسط هذه البؤرة غير الرشيدة يحق لنا إعادة صياغة المثل بحيث يكون" لا تأمن المخزن على مالك ولا على عيالك ولا على بلادك".

* * *

"من جاء تحت الدار ما منّه تعذّار"

إذا كانت للجغرافيا أثرها في تشكيل سلوك الناس وطباعهم وتحديد أنشطتهم الاقتصادية فإن المثل الشعبي يعكس جوانب من ثقافة الشعوب ومزاجهم العام، ويشير أحيانًا إلى أنساق مجتمعية متنوعة في إطار المجتمع الواحد، وبعودة إلى صيغة المثل نجده يُردَّد بصيغ متنوعة منها: (إذا قده تحت الدار ماشي منه تعذّار). وفي الثقافة الشفاهية الشعبية لا توجد قوالب ثابتة للأمثلة أو للكلام المأثور، إنما تتعدد الصيغ لتحمل معنى واحدًا أو متقاربًا، ونص المثل بحسب العنوان واضح في معانيه لكنه يحمل دلالات تجعله يتحرك بحسب المناسبة أو ضمن النسق الاجتماعي القبلي أو الحضري، فمثلًا يكون المثل حاضرًا في الصدور عند وصول ضيف (ثقيل)، أو غير مرغوب فيه إلى عتبات البيت حيث لا مجال للاعتذار، بل يكون التظاهر بالترحيب من الأمور المستحبة في التقاليد العربية.

وأحيانًا يستحضر المثل عند قدوم طرف من الكتلتين المتخاصمتين إلى محل الطرف الآخر طلبًا للحوار وبحثًا عن الأسلوب الناجع لرأب الصدع، وغالبًا يوصف هذا الموقف الذي يبدو عليه التنازل بالمبادرة النبيلة، يدعم ذلك تعاليم إسلامية تجعل الخيرية عند الخصام للذي يبدأ بالسلام، وهنا لا مجال للاعتذار، وهذه مرحلة توصل إلى قبول الحوار من حيث المبدأ قبل أن يدخل الناس في التفاصيل.

على أن المهم بالإشارة في هذا المثل عندما يستحضر في المواقف الصعبة أو الحرجة لا سيما عند وصول قوى معتدية إلى الديار ومداهمتها، وبخاصة بين الدول. في هذه الحالة يحمل ظاهر المثل دعوة إلى فضيلة الدفاع عن النفس، وعدم الاستسلام، لكن

في حقيقته يؤشر إلى حالة من الغفلة، والضعف والاستكانة. فنحن هنا أمام مساحة مفتوحة أو رخوة يسرت عملية الاختراق، ومعروف في قواعد الاشتباك القتالية (أن الهجوم خير وسيلة للدفاع)؛ ولهذا فإن خط الدفاع الأساسي إذا اقترب من (الديار) فهو خط محفوف بالمخاطر ويؤدي إلى المهالك، وفكرة حفر الخندق (في غزوة الخندق/ الأحزاب) بمسافة معقولة خارج المدينة المنورة كان إجراء ذكيًا لصد القوات المعتدية قبل وصولها إلى الديار، وعلى أية حال فإن حفر الخنادق من تقاليد الحروب في العصور الوسطى التي تعمد في معظمها على المواجهة المباشرة وباستخدام تقنيات الحصون وأسوار المدن لا سيما عند الصراع الداخلي، وعلى نظام الثغور عند ترقب الهجوم من القوى الخارجية المتربصة بوصف -الثغور- خطًا استشعاريًا أوليًا قبل وصول المهاجمين إلى أسوار المدن ومحاصرتها.

وباختراع الإنسان للأسلحة النارية الحديثة تغيرت قواعد الاشتباك تمامًا، وصار خط الدفاع عن (الديار) يتجاوز حدود الدول، وتكونت الأحلاف الدولية الكبرى، وتغير مفهوم الأمن القومي، فعلى سبيل المثال قبيل الحرب العالمية الثانية بعد أن ضمت ألمانيا النازية أجزاء واسعة من تشيكوسلوفاكيا حليفة فرنسا وبريطانيا اضطر رئيس الوزراء البريطاني (تشمبرلين) لتوقيع اتفاقية (ميونخ ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨م) مع (ادولف هتلر)، وعند وصوله إلى بلاده صرح للصحفيين بعبارته المشهورة: "إن بلادكم خيّرت بين الحرب والعار فاختارت العار وستأتيها الحرب"، كانت بريطانيا ترمي إلى (رشوة) هتلر أو مهادنته حتى لا يصل إلى حدودها وحتى يتجه نحو الاتحاد السوفيتي وعلى صعيد مقابل، ودرءًا للخطر النازي وقع الاتحاد السوفيتي في عهد الرئيس (جوزيف ستالين) معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا ليصرف أنظارها ولو مؤقتًا عن بلاده، ولهذا عندما استمر هتلر في حربه التوسعية في أروبا بعيدًا عن الاتحاد السوفيتي أعلنت بريطانيا

الحرب على ألمانيا قبل أن تتقدم نحو (الديار) البريطانية، والوقاية خير من العلاج، ونقل ميادين الحروب إلى مسافة بعيدة عن الأوطان وفي أرض العدو خطوة تحسب لصالح المبادرين أو المهاجمين. لهذا يخطط الإسرائيليون في حروبهم مع العرب وفقًا لاستراتيجية الحرب تحت ديار العرب؛ لأنهم يدركون أن المستوطنات الإسرائيلية ستكون أوهن من بيوت العنكبوت إذا جاس العرب حولها.

بعد الحرب العالمية الثانية حدثت طفرة في سباق التسلح بين الدول الكبرى، وتحولت موازين القوى من البحر والبر إلى السماء المفتوحة، وصارت (حرب النجوم) هي الحاسمة، وظهرت الصواريخ الباليستية، والعابرة للقارات، والذكية أو الموجهة، والقنابل النووية والهيدروجينية، والطائرات المُسيَّرة، والأقمار الصناعية التجسسية وغيرها، وبهذا انكشفت الديار من فوقها ومن داخلها ومن أسفل منها.

وفي خضم هذه التحولات الخطيرة ما يزال العرب يجهزون بعنتريات قديمة جديدة ضد بعضهم البعض، بجيوش جرَّارة أكثر ما تستأسد وتجوس خلال الديار إذا كان (العدو) من جلدتهم ومن ملتهم، وما يزالون يدخلون في حروب ونزاعات عبثية تجلب لهم العار قبل الانهيار. ولأن التدافع بين الناس سنة من سنن الكون فإن الهدي القرآني يؤكد (لقوم يعقلون) على أهمية الردع، والاستعداد المتجدد للقوة ضد المعتدين المحتملين، لكن واقع الحال هو انكشاف الحال.

وفي هذا السياق إذا تحدثنا عن أهمية إيجاد صيغة اتفاق عربي حقيقي للدفاع العربي المشترك لحماية الديار في هذا الواقع المنهك بالنزاعات والعداوات البينية سيدخل في باب التنكيت المثير للسخرية، وفي أحسن الأحوال سيوصف بالطرح المثالي أو الخيالي، ومع هذا نرى لا خيار أمام العرب في قادم الزمان، وقد تكالبت عليهم الأمم إلا بالتكتل باستراتيجية الأمن العربي العام، والمصير المشترك، وبغير هذا لن يكون عندهم مجال للأعذار إذا وصل الأعداء إلى تحت الديار، هذا إذا بقيت الديار.

"كما حمار الهجرين"

دخلت الحيوانات الأليفة بكيفيات متنوعة ضمن محيط المجتمعات البشرية بوصفها جزءًا من التسخير الإلهي لمنفعة الإنسان في الأرض (ولله في خلقه شؤون)، وهذا الاختلاط المسيطر عليه جعلها تشارك في بعض تفاصيل الحياة اليومية؛ الأمر الذي يسر دخولها في مفردات الثقافات المحلية الإنسانية وبخاصة في الأمثلة الشعبية أو المقولات المأثورة والرمزيات الأدبية والسياسية، بل يكون لها أحيانًا نصيب من الأوقاف والصدقات، وعلى سبيل المثال عندما يذكر الناس الوفاء تذكر الكلاب ويقال: (أوفى من كلب)، أما الجمال فيقترن اسمها مع مقام الصبر، والجبن في حال الدجاج. أما الحمير وعلى ما تبذله من جهد وما تظهره من قوة تحمل فإنها غالبًا ما توصم بالفهم البطيء، لكن المقولة الحضرمية المشهورة التي استعار العنوان شطرًا منها، والتي تقول: (كما حمار الهجرين طالع محمل ونازل محمل)، تشير ضمنيًا لمعاناة الحمير العاملة في مدينة الهجرين، وتعترف بدورهم الكبير في خدمة الإنسان.

ولكن التساؤل الذي يضع نفسه كيف استقرت الحمير العاملة في الهجرين في الثقافة المحلية في حضرموت بوصفها الأكثر معاناة من غيرها من الحمير في المناطق الأخرى، ومعروف أن قصة الحمير مع الإنسان واحدة في كل زمان ومكان، وإن تباينت درجات الشقاء بحسب (حظ) الحمير في مكان العمل وحركته، ويبدو لنا أن هذه (المكانة) جاءت من كون مدينة الهجرين الدوعنية الحضرمية تقع على مرتفع جبلي مثّل لها تحصينًا طبيعيًا ضد الغزاة عبر التاريخ، لكنها في أوقات السلم حيث يزرع الناس ويعصرون في المزارع التي تقع من أسفل منها لا سيما على ضفاف الوديان والشعاب

القريبة يكون أهلها مجبرين على الهبوط في منحدر محفوف بالمصاعب والمشقات؛ لهذا كانت مهمة الحمار (البطل) ملحة أو حيوية ويستفاد منه لحمل الأثقال والركاب في رحلتي الهبوط والصعود، ومن هنا تحصلت الحمير العاملة في الهجرين على الاعتراف الاجتماعي بجهودها أو بالأحرى بمأساتها. فصارت مضربًا للمثل وحاضرة في الثقافة الشفاهية في أرجاء حضرموت عند حضور حكايات التعب والمشقة.

وعلى مسافة غير بعيدة من مدينة الهجرين تتكرر قصة الحمير العاملة على سفوح الجبال في فرعي وادي دوعن (ليمن وليسر) بوصفها الخيار الأمثل لرفع الأثقال، وقد جرّبنا نحن سكان السهول الساحلية صعود سفوح دوعن عند زياراتنا لبعض مدنها وبلداتها، وكانت تجربة فيها نصيب من التعب بحكم عدم التعود، حتى سأل سائل من الصاعدين بفضول عن كيفية رفع حاجات السكان ومتطلباتهم؛ والإجابة تكون بأن الحمار هو أيضًا (البطل) الوحيد والصاحب والمعين، وذات يوم بينما كنّا في رحلة صعود نحو بيت صديق في الخريبة، ظهر حال الفريق كحال من يصّعد إلى السماء حتى نصح صديق من الدواعنة باتباع (تقنيات) الحمير بالسير في خط متعرج يطيل المسافة لكنه أقل وطأة من الخيار المستقيم (المختصر)، وكانت فعلًا نصيحة مفيدة حتى علّق -بمرح- صاعد من الصاعدين بقوله: (الحكمة ضالة المؤمن يأخذ بها، سواء وجدها في الصين أو حتى عند الحمير).

ولا تختلف الحمير العاملة في داخل حضرموت وساحلها عن غيرها من حمير الأرض، فجميعها خلق لما قُدّر له، لكن تنوع الجغرافيا جعل الإنسان يبتكر الوسيلة المناسبة لرفع الأحمال؛ لهذا نلاحظ الحمير العاملة على سفوح الجبال يتم وضع الأثقال مباشرة على ظهورها، أما في السهول حيث الأرض المنبسطة تربط ظهور الحمير بعربات يضع فيها الأحمال (وكله على ظهرك ياحمار)، ومن الصعوبة بمكان تحديد الحمير الأوفر حظًا

من حيث درجة الشقاء؛ لأن ذلك يرتبط في المقام الأول بمدى رحمة الإنسان لهذه البهائم التي تشعر بالألم والتعب والإنهاك، ولو عرفت المحاورة لاشتكت.

ذات يوم في بداية سبعينيات القرن الماضي كانت الحمير في مدينة المكلا على موعد في دور مغايرة لمهامها التقليدية؛ لهذا زيّنت عرباتها بالأعلام الملونة والبالونات، وعلى أسطح العربات ركب أطفال الروضة وهم بكامل زينتهم، وطيف بهم في أرجاء المدينة في مشهد فرائحي مشهود، وكان صاحب الفكرة مدير الروضة وقتئذ السيد محمد سعيد مديحج، وبعد أكثر من عقدين من ذلك اليوم سألت السفير محمد سعيد مديحج عن مغزى فكرته الابتهاجية، فقال: كانت فعالية رمزية انطلت على الحكام وقتئذ، فكنت أريد توصيل رسالة تحذيرية بخطورة قيادة (الحمير) للتعليم في ذلك الزمن، الذي تقدم فيه الصفوف السياسي (الثوري) على المهني المحترف، وبعد أكثر من أربعة عقود من تلك الحادثة الرمزية ممكن القول للأستاذ محمد مديحج -رحمه الله- لقد وقعت الفأس في الرأس، وأنه لو تركت للحمير الأصيلة فرصة للقيادة في البلدان المتخلفة ربما سيكون أداؤها أفضل من بعض البشر فهي في الأقل تنفع ولا تضر، ثم إن الحمير لا يقتل بعضها البعض.

وفي سياق مقارب وفي قاعات الدرس الجامعي أحاول -عندما أتحدث إلى طلابي عن الانقلاب الصناعي في أروبا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أو الثورة الصناعية كما وصفها بدقة المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي (١٨٩٨- ١٩٧٥م)- توصيل فكرة هذه الثورة بأنها تقوم على أساس اختلاف معيار الطاقة بعد اختراع جيمس واط (١٧٣٦- ١٨١٩م) لقوة البخار، فصارت الآلات تتحرك بسرعة بغير الحاجة لقوة الإنسان أو الحيوان، ومع تطور التقنيات الصناعية في مجالات متعددة مدنية وعسكرية في أروبا صارت الحاجة للحيوانات في الزراعة أو المواصلات في حدود ضيقة وربما اختفت،

وما بعد الثورة الصناعية تغير العالم بخطى متسارعة وبخاصة عند أولئك الذي راهنوا على استراتيجية العلم والإبداع والانطلاق، في الشرق عمومًا الحال غير الحال، وعلى الصعيد المحلي شهدت المدن الساحلية الحضرمية لا سيما المكلا في العقدين الأول والثاني من هذا القرن (٢١) العد التنازلي المتسارع للاستغناء عن (طاقة) الحمير، أما حُسر دوعن ومرتفعاتها الشامخة فما تزال عصية على الانحناء، وفي ذلك قال الشاعر حسين أبوبكر المحضار قصيدته الشعبية المشهورة التي من أبياتها:

مكانش يا حسر دوعن عسيرة فلوس التاج ما قدرت توطيش

فاستمرت الحاجة لقوة الحيوان وما تزال بوصفها وسيلة لرفع الأثقال، ولسنا بصدد مقارنة في مستوى التطور بين حمير أروبا وحمير العرب، ثم إن هذا موضوع آخر مستقل. وبعودة إلى بدء فإن مدينة الهجرين التاريخية الجميلة بعد أن شق إليها طريق للسيارات تخفف العبء على الحمير العاملة فيها لكنها – أي الحمير - استحقت الخلود في الثقافة الشفاهية المحلية فقد ارتبطت عبر مراحل من التاريخ بصمود أهلها واستجابتهم الحضارية الرائعة لتحديات البقاء، ولأن السلام ختام بقي أن نردد ما قاله الشاعر الشعبي مخاطبًا مدينة الهجرين:

(سلام يا أم الهجر يا دقم رحماني
يا الحيد يالمنتصب يا صنعة الرحمان)
ومني تعظيم سلام للهجرين وأهلها ...

* * *

"قبصة حشيمة"

تتداخل الأمثلة الشعبية والمقولات المأثورة في دلالاتها ومعانيها عند إسقاطها على مواقف الحياة المتنوعة وإن اختلفت السياقات وتعددت المناسبات، وسنوضح ذلك بأمثلة في السطور القادمة، وإذا بدأنا من عنوان المقال سنعرف أن الحضارمة في حوارهم الشفاهي البيني غالبًا ما يكتفون بكلمتي (قبصة حشيمة)، اختصارًا لمقولة يرددونها نصها الكامل: (كما قبصة حشيمة في الرقاد)، وقبل تفكيك هذا النص علينا توضيح المعنى المباشر بحسب الفهم المتعارف عليه وهو: إن المتحدِّث أو المتحدَّث عنه تصرف مثل ما تصرفت فلانة (المحصن)، التي فضلت التكتم وعدم إعلان التحرش بها حفاظًا على سمعتها حتى لا تكون في موضع الشبهات.

وإذا تتبعنا أصل النص بصيغته العامية سنلاحظ أنه مرتبط بالمناطق الحضرية (المدن والبلدات الكبيرة)؛ حيث البيوت المتعددة الطوابق، التي تقطنها عائلات كثيرة متنوعة من حيث القرابة الأسرية، والمكانة الاجتماعية، وحيث سيادة العادات الاجتماعية التي تمنع الاختلاط بين الجنسين، وتحرص فيها المرأة على تغطية معظم أعضاء جسمها، وفي مثل هذه المجتمعات الحضرية التي يتسم أهلها بالمحافظة يكون من الصعوبة بمكان حدوث تواصل بين الجنسين بعيدًا عن رقابة المجتمع، ولا ريب أن ظهور هذه المقولة وشيوعها كان قبل ثورة الاتصالات الحديثة بمسافة زمنية طويلة، ولعل هذا يقربنا لفهم فرص حصول مكان فعل الاحتكاك (القبصة) على سلالم (رقاد) البيوت، وهي حيز تلتزم فيه النساء بلباسها كأنها في الشارع العام تمامًا بتمام، ومن جانب آخر تؤشر المقولة إلى أن هذا الفعل المشين مرفوض اجتماعيًا وينظر بازدراء لفاعله.

و(القبصة) بمعناها الاصطلاحي بحسب المقولة: هو حصول فعل اللمس المتعمد والمباغت لمكان في جسم المرأة المعتدى عليها، وبهذا فهي ليست الفاعلة لفعل (القبص) أو القرص كما قد يبدو من ظاهر النص (قبصة حشيمة) وسكوت المرأة (المجني عليها) هو قرار حكيم للدفاع عن الشرف أكثر منه القبول أو الرضا؛ لأن أي صوت في تلك المنطقة الضيقة سيسمع وسيفسر بما لا تحمد عقباه. تجدر الإشارة إلى أن التحرش فعل نادر الحدوث، ولا يشكل ظاهرة مزعجة في المجتمع الحضرمي.

وكما للمجتمعات الحضرية تقاليدها وعاداتها فإن للمجتمعات الريفية وبالأحرى البدوية تقاليدها الخاصة المتعلقة بردود فعل المرأة عند التحرش بها، وبمقارنة مجال الحركة خارج مكان السكن بين المناطق البدوية والريفية نجد المجال يكون أرحب أمام الفتاة البدوية لقيامها برعي الأغنام، وجمع الحطب، وجلب الماء، وبحكم خصوصية المجتمع البدوي الذي يقوم على قرابة النسب أو العائلة الكبيرة الممتدة يجعل مساحة تواصل النساء الاجتماعي أكثر اتساعًا؛ لأن رجال القبيلة هم الحماة والعزوة، ولهذا غالبًا ما تكون التجاوزات من الغرباء عابري السبيل، والبدوية ترد السلام على الغريب وتجيب عن تساؤلاته بما تعرف عكس الفتاة الحضرية التي لا تتحدث حتى مع أبناء عمومتها إلا في حدود ضيقة، ولهذا نجد موقف البدوية يتصف بالقوة عند الاعتداء عليها سواء باللفظ أو باللمس وتسارع إلى الاستنجاد بقبيلتها، وفي حالات معينة تقول للمعتدي: (عنيت منك)، أي أطالب بحق وتعويض جراء هذا الاعتداء، وهنا لا بد من محكمة قبلية تلزم المعتدي بدفع غرامة مالية أو عينية (ناقة أو بندقية).

وممكن نعزو الموقف البدوي القوي تجاه (المتحرشين) -فضلًا عما ذكرناه- إلى أن نساءهم غالبًا ما يضطررن إلى الابتعاد عن مثاوي القبيلة، لهذا لو حدث تهاون قد

تتكرر حالات الاعتداء، وعلى أية حال فإن المعادل الموضوعي بين تكتم (الحضرية) وصياح (البدوية) أن الكل معني بالحشمة والعفة التي تؤكد عليها العادات العربية والتعاليم الإسلامية، والاختلاف في ردود الأفعال ممكن فهمه في سياقاته وليس من خارجه، فالتفكير البدوي في مثل هذه المواقف يتسم بالمباشرة، ويفضل نزع الحق باليد وحسم الأمور، في حين تداخلات المجتمع الحضري تميل فيه ردود الأفعال إلى أسلوب التهدئة، والتريث في اتخاذ القرارات. ولسنا هنا بصدد الحديث عن التواصل الاختياري بين الرجال والنساء الذي يقوم على القبول والرضا، فتلك قصة أخرى لها أبعادها المتنوعة وقواعد العشق الخاصة بها.

ومع مرور الزمن ترسخت مقولة (قبصة حشيمة) في الوعي الجمعي، وصارت (ثقافة سلوكية) ممكن ملاحظتها ورصدها لمن تصدى بالبحث العلمي لدراسة الشخصية الحضرمية، كما وجدت للمقولة تطبيقاتها وإسقاطاتها في مواقف مقاربة لا سيما عند أولئك الذين قرروا وضع حد قاطع لتصرفات معينة أو مواقف عابرة جعلتهم في المكان الخطأ، وقد تحضر هذه المقولة على لسان مسؤول غض الطرف، أو ستر موظفًا تجاوز في عمله على حق من الحقوق، وغالبًا يكون لمثل هذا المنحى أثر طيب ومستدام لا سيما عند أولئك الذين عناصر الخير أصيلة في ضمائرهم، "ومن مننا معصوم ما قد يوم زل".

لكن أحيانًا تنحرف هذه المقولة عن أداء دورها في النصيحة، من ذلك عند استحضارها من أطراف للقبول بأوضاع خانعة، أو عند تعمُّد غض الطرف عن تصرفات طائشة تضر المجتمع، فتتمظهر المقولة عند هؤلاء بمظهر الحكمة، وما هم عنها بقريب، وأحيانًا تكون المقولة حاضرة عند المحللين السياسيين لا سيما عند أصحاب وجهات

النظر، التي ترى في انتهاج دولة ما لموقف ضبط النفس، وعدم الرد عند الاعتداء عليها من دولة أخرى أقوى منها، والأمثلة كثيرة في العلاقات الدولية المعاصرة. بقي القول: إذا كان الدرس من ردة فعل (الحضرية) هو الحث على التحلي بفضائل: الصبر، والستر، والطهر، فإن (البدوية) تُذكّر بصوتها الواثق من نفسه بقول المتنبي: لا يسلم الشرف الرفيع عن الأذى *حتى يراق على جوانبه الدم..... وكلتاهما على خير..

* * *

"الرجال تطعن و تطحن"

أسس التراتب الاجتماعي في حضرموت بمفاهيمه العامة (سادة ومشايخ - قبائل - حضر) لما يمكن وصفه بالثقافة الداخلية في إطار الثقافة العامة لشخصية المجتمع الحضرمي، ونقصد بالثقافة الداخلية منظومة العادات والتقاليد والتعاليم الأسرية لبناء الشخصية، وهي تأخذ أبعادًا كثيرة، منها الحث على ارتياد المساجد، واحترام الكبير، ومراقبة طريقة القيام والجلوس وحركة السير، وكيفية تناول الطعام، وطريقة الكلام، والتفاعل المجتمعي من حيث تشجيع فضيلة الدفاع عن النفس، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين، وأشياء كثيرة.

في المدن الحضرمية ما يزال التراتب الاجتماعي حسب التقسيم أعلاه يلقي بظلاله على الأجيال، وبخاصة بعد هدنة السلام في حضرموت (صلح إنجرامس) عام ١٩٣٧م، التي من أبرز نتائجها ازدياد عملية النزوح من الأرياف إلى المدن، وانخراط رجال القبائل في مهن كانوا ينظرون للعاملين فيها بنوع من الدونية، بل كان مصير من يستقر من عناصرهم في الحواضر، ويقطع علاقته مع قبيلته في الحواضر – قبل الهدنة العامة- هو النزول في المرتبة الاجتماعية إلى شرائح الحضر.

إن هذا النزوح الكبير وإن شئت القول التغلغل القبلي في المدن أبقى على ما يمكن وصفه (بالحق القبلي التاريخي)، أي إن الفرد منهم قد يكون هو ووالده وجده من مواليد المدينة، ويشتغل في مهنة أو حرفة ما، لكنه يظل يميّز نفسه عن زملائه أصحاب الحرفة بهذا (الحق) التاريخي، وهكذا نحن أمام مجتمع واحد بعناصر مشتركة في

الشخصية وهي الأغلب، وعادات وتقاليد متوارثة بالتراتب الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية التاريخية، فمثلًا فئة السادة والمشايخ -وهم من سكان الحواضر- ترتبط بالجوانب الدينية والتعليم والدعوة إلى الله، لهذا تجد في (ثقافة) هذه الفئة الداخلية مفردات تختلف عن بقية الفئات، وهو ما يمكن وصفه بالتأهيل الأسري للحفاظ على المكانة الاجتماعية، من ذلك الالتزام بزي معين، والحرص على أن يظهروا بمظهر الوقار والرزانة، وبتجنب المقاهي الشعبية إلا في حدود معينة، كما أن الفرد منهم غالبًا ما يكون مضغوطًا بنظرة المجتمع؛ لمكانتهم الخاصة، فمثلًا عندما يظهر (المراهق) منهم سلوكًا معينًا ربما مقبولًا من غيره تجد هناك من يوبّخه أو يعاتبه، مبينًا بأن هذا السلوك لا يليق به؛ فهو ابن ناس أو "من دار زينة".

وما قد يراه البعض يقلل من الوجاهة والوقار تجده عند سكان المدينة (الحضر) من الأمور العادية، مثل المشاركة بالرقص في الألعاب الشعبية، وفي نوع الملابس وطريقة لبسها، وفي ارتياد المقاهي الشعبية، وأيضًا في التعاطي لبعض المنهيات، مثل (التانبول)، والشمة (النشوق)، والنارجيلة (الرشبة)، وهذا لا يعني انعزال فئات المجتمع عن بعضها أو عدم التداخل في السلوك العام بين كل سكان المدينة لكن منهم من يتجنب، وصنف "يفعل في روما كما يفعل الرومان"، وهناك المستترون مخافة الملامة، وهذا يختلف عن قضية الاندماج التي تعاني منها بعض المجتمعات ذات الإثنيات المختلفة أو المذاهب الدينية؛ لأن الأصل في مجتمع المدينة الحضرمية الاندماج السلس مع الاحتفاظ ببعض العادات الاجتماعية القديمة والمرحلية.

وبأنساق متنوعة تتعايش داخل المدينة عادات البادية وتقاليدها من الجيل الأول أو الثاني، وممكن إرجاع ذلك إلى ما يمكن وصفه بالصراع الحضاري بين سكان البوادي والحواضر، فيعتز البدوي من الجيل الأول بملابسه ومظهره العام وبقبيلته وشدة

شكيمته وسلاحه الأبيض الذي لا يفارق جنبه، أما سكان الحضر فهم يستهجنون بعض هذه المظاهر والسلوكيات، ويسخرون منها، ويربطون البداوة بالفوضى والإخلال بالنظام، لكنهم يعترفون بصدق تعاملهم، وثباتهم على مواقفهم، لهذا يُسمع في حوارهم عبارة (كلمة بدوي)؛ للتأكيد على الوفاء بما يتعهد به المتحدث من الحضر، ولديمومة الهجرة من الريف إلى المدن تتدرج عملية الذوبان في عادات المدينة على حساب عادات الريف بحسب أقدمية الانتقال.

وقبل الذوبان التدريجي للبدو في الحواضر تطغى في (ثقافتهم) داخل مساكنهم الكثير من المفردات (الحربية) بكيفيات متنوعة، على سبيل المثال يقولون: (الرجال تطعن وتطحن)، ويبدو لنا أن النص بدويٌّ من صناعة المدينة، ويُستدعى أكثر ما يُستدعى عند التشجيع على فضيلة العمل اليدوي، التي ينظرون لها بنظرة متدنية كما سبقت الإشارة، وتعبّر هذه المقولة عن الصراع الداخلي للبدو المثقلين بتقاليدهم وعاداتهم، ففي وصفهم الداخلي يطلقون على العامل الأجير (الجعيل)، وعند التلفظ بها يقصدون الشتيمة المدعمة بالاستهزاء والاستحقار، وعندما استقروا في المدن صار لا مناص أمامهم من العمل اليدوي أو العضلي، هنا تدخّلت أو لعلها صنعت مقولة (الرجال تطعن وتطحن)؛ لتخفف العبء عنهم، وتدعم (كرامتهم) المجروحة، لهذا تقدمت لفظتا (الرجال) و(الطعن) على لفظة (الطحن)، وهذا يعني أن النص منحاز للبدو (القبائل)، ويعترف لهم بالرجولة والقتال، بمعنى آخر: يريد النص التأكيد على أن (الطحن) لا يلغي رجولة الرجال، ولا يقلل من همتهم في الطعن عند ساعة النزال، وإن الطحن (العمل الحرفي) هو الفعل العابر.

تجدر الإشارة إلى أن البدو في مثاويهم لا يستنكفون العمل في الزراعة والرعي وأي أعمال عضلية إذا لم يكونوا أجراء عند الآخرين، ولعدم امتلاك الجيل الوافد الجديد

للمؤهلات إلا فيما ندر صارت فرص العمل محدودة، لهذا أجبرتهم قواعد العيش في المدينة على تغيير نظراتهم تجاه الحرف والمهن والانخراط فيها، وفي سياق متصل تجد البعض منهم مع أصحاب الفئة الأولى ممن لا يقبلون شروط المدينة يضطرون إلى الهجرة والاغتراب، ومعظم هؤلاء لا يجدون غضاضة أو حرجًا في العمل بالأجرة، وفي ظروف أكثر صعوبة عند صاحب عمل (طبين) من خارج وطنهم، يدفعهم إلى ذلك بقوة الحلم والطموح ليرجعوا (طباينة) في بلادهم.

وهذا النص ثلاثي الكلمات غزير بالدلالات الثابتة والمتحركة، فخلال العقود الأربعة الماضية مع انتشار التعليم في حضرموت وتيسر فرص التعليم النوعي والعالي أمام الجميع تحركت الوظيفة الاجتماعية، فصار مثلًا الطبيب والضابط العسكري أو الفقيه ينحدرون من أبناء هذه الفئات الثلاث، وبضغط التراتب الاجتماعي تجد في المدينة من يعرب عن اندهاشه من هذا التحول، وكما أن هناك من يرى العلم (حقًا حصريًا)، فهناك من يعتقد العسكرة وحمل السلاح (حقًا تاريخيًا)، وفي هذا يقول الشاعر صالح المفلحي: (بلجيك ما تصلح إلا على كتف السعيدي)، وهذا كله يدل على أن التراتب الاجتماعي في المدن ما يزال -ولو بوتيرة أقل- يلقي بظله (الطبقي) على زملاء المهنة الواحدة.

إن الحديث في هذه الناحية متشعب وذو شجون، ولا يخامرنا الشك في أن المدينة في قادم الزمان ستنتصر لقيم التسامح والتعايش والوئام والمساواة تحت راية قانونها العام، وأنه لا مناص سيأتي اليوم الذي يقتنع فيه المتنافسون أنه "من جدّ وَجَدَ"، وأن العلم والأخلاق والشجاعة لا علاقة لها بأصحاب الدماء الزرقاء أو البيضاء أو الحمراء، وأن "لكل مجتهد نصيب"، وسيعيد الناس بتمعن قراءة الآية العظيمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

فكم نحن بحاجة إلى طعن العادات البالية المتخلفة، وتشجيع فضيلة (الطعن) إذا كانت للدفاع عن الوطن، والحق، والعرض، والكرامة. نحن أيضًا بحاجة إلى جيل يزرع ويطحن ويصنع حتى يأكل الناس ويشبعوا.. يا قوم: لا تتطاحنوا على سفاسف الأمور فتذهب ريحكم.. يا ناس: انشغلوا بالخير لأجل أنفسكم لا بالشر على بعضكم البعض لعلكم ترحمون.

* * *

"تدخل بأمرك وتخرج بأمر غيرك"

لا تحتاج هذه المقولة إلى قراءة تفكيكية، أو النظر إليها بمنهجية ما بعد الحداثة، والنصيحة في هذه المقولة - أو إن شئت قل الحكمة - واضحة وضوح الشمس الشارقة في كبد السماء، فكم ردَّدها الناس وهم ينصحون غيرهم، وكم سمعوها وهم يتقبلونها بقبول حسن، ومع هذا يدخل الناس في أمور كثيرة دون أن يتدبروا أو ينتبهوا لعواقب الأمور، ولهذا فالمشكلة في تجاوب الناس مع المقولة وليس في نصها.

وتتقارب هذه المقولة في بعض نواحيها مع لفظة (المغامرة)، التي هي تحرُّك شجاع، محسوب بتوقعات ظهور مفاجئات خطيرة خارج الحساب، والمغامرة في كل الثقافات الإنسانية فعل يُحمَد صاحبها عليه مهما كانت النتيجة، ففي حالة تحقيق الأهداف يُوصَف المغامر بالبطل، وإذا تعثَّر ينال وسام شرف المحاولة، ولهذا فالمغامرة أقرب ما تكون إلى مشاهد البطولة وملاحمها.

أمَّا قصة الدخول والخروج . بحسب المقولة أعلاه . فلها أبعاد متعدِّدة، منها ما هو إيجابيٌّ، وبعضه سلبيٌّ، ففي جانبها الإيجابي تحضر المقولة على سبيل المثال في لحظة دخول الفرد في (ورطة) اجتماعية بخاصة عندما يزور شخص ما بيت صديقه المقرَّب، أو أن يكون عابرًا بالقرب من بيوت معارفه لغرض معيَّن سريع، حينها تُرَدَّدُ المقولة في داخل المكان من باب الدُّعَابة، وتحت التهديد بالحَلِفِ المغلَّظ، وبحسب عادات الكرم العربيّ لا يُسمَح (للغريم) بالخروج من البيت إلَّا بعد استكمال واجبات الضيافة، التي في أدناها فنجان شاي، وفي أعلاها ذبح (خروف بريء)، يكون الأتعس حظًّا،

أو الخاسر الوحيد في قصة مشهد المأزق الكريم لاسيما عندما تُشهَر عليه السكاكين، وتتقطع الشرايين.

وفي ثنائية عربية تشبه قصة الدخول والخروج بحسب المقالة نجدها عند إخواننا المصريين عندما يقولون: "دخول الحمام مش زَيِ خروجه"، وتحيل التخريجة المصرية من أول وهلة إلى الخروج من وضع سلبي إلى آخر إيجابي منعش، لكن هذا المعنى الجميل يواري الغرض الأساسَ من المقولة المصرية؛ فغالبًا ما تكون حاضرة بقوة عند أولئك الذين فُرِضَت عليهم شروط الخروج القاسية أو المُذِلَّة بعد أن تساهلوا أول أمرهم في حساب احتمالات العواقب الوخيمة، وغفلوا عن متطلبات الاحتياطات.

وفي سياق مقارب يحضرنا التناص لهذه المقولة في قصيدة مُغَنَّاةٍ للشاعر حسين المحضار، يدعو فيها إلى الاحتراز قبل ركوب البحر، من أشهر أبياتها: "قايس وعادك في النَّفَسْ ماشي في الغبة مقاييس"، ففي أعالي البحار (الغبب) إذا لم تكن مُستَعِدًّا بوسائل النجاة وتتوقع تقلبات أحوال البحار سيجرفك المحيط أنّا شاء.

عند الدخول في تجربة شخصية لم يحالفها النجاح، فمهما كانت مرارة الخروج وتبعاته فإنَّ الخطب يظل محدودًا في الفرد ذاته، وربما على أفراد أسرته، ثمَّ إنَّ الحياة . كما يقال . تجارب، وفي خضمِّ المحاولات يتعلم الإنسان، ويكتسب الخبرة، وينضج تقديرُه لفهم حجم المصاعب والمآلات والمكاسب والخسائر، "وكُلْ سَقْطَهْ بْتَعْلُومَهْ"، لكن الخَطْبَ يصير جَلَلًا، والمصيبة كبيرة عندما يَزجُّ قادة متهوِّرُون بالشعوبِ في مهاوٍ سحيقة، وذلك باتخاذ قرارات انفعالية غير محسوبة، ونابعة من تركيبتهم النفسية المريضة، وفهمهم المحدود، ولا داعي لذكر نماذج من هؤلاء (القادة)، وحسبك النظر في حال الشعوب المنكوبة ستجدُ ضالَّتك في حضرة جناب (القائد الملهم الرمز الضرورة)،

فإنْ كان في بلاده حيًّا فهو ينعم في قصر مشيد، وإذا هرب خارجها فوضعه الاقتصادي من حديد، وهو الأمر الوحيد الذي نجحُوا في حسابه.

ومن قصة البدايات العجولة والنهايات التي تشبهها بالضرورة نستطيع معرفة أسباب فشل نماذج من تجارب الوحدة بين بعض الدولة العربية، والحديث في هذا الباب يطول لكننا نفضِّل الإشارة ولو بعجالة إلى تجارب اتحادية ناجحة استعدَّتْ للبدايات، وحسبت للنهايات، فعلى الصعيد العربي تبرز دولة الإمارات العربية المتحدة التي تشكل – حتى الآن - حالة عربية معقولة لحكم اتحادي مستقر. ومن النماذج الاتحادية الدولية الاتحاد الأوربي، الذي يقوم على المصالح المشتركة، والمؤسَّس على الخيارات المفتوحة بتقديرهم للحظة الدخول الأولى، واحترامهم لخيار إرادة الشعوب بالخروج بوصفه حقًّا وشرطًا ترسخ في بداياتهم الصحيحة.

بقي أنْ نقول ما تقوله العرب: "إذا حسبت للدخول مرة فاحسب للخروج عشرًا"، لكنهم لا يفعلون ما يقولون، لهذا تجدُ أكثرَهم يقع فريسة سهلة للمكائد والكمائن، ثم يدندن بعضُ هؤلاء بندم:

" لوْ كنت أعرف خاتمتي ما كنت بدأت "

* * *

" الشاة شاة سالمين واللّبن لسيده "

هكذا يقول لسان حال الحضارمة على صنف من الناس ضيّع جُهدَهُ وراءَ سرابٍ من بريق كلمات، أو اختارَ سلبَ حقِّه في وهم سلطة وبطولات، وبحسب المثل قُدِّرَ لسالمين دائمًا الإمساكُ بقرنَيْ شاته كفارس في معركة مع فراغ، وفي ساحة الوغى يُجِيدُ سالمين لعبة الاستغماية بينه وبين شاته؛ كي ينسابَ اللبنُ الزُّلالُ للأسياد، ثم يعود الفارس سالمين حاملًا لواءَ التسمية، ويَخْلَدُ إلى النوم بعد أن يحكي لنفسه بعضَ صولاته وجولاته.

وقد تحرَّك هذا المثل في دلالاته ومساراته مع تبدُّل الأحوال وتغيُّرها، وتَعَاقُبِ السِّنينَ، وبِمُوجِبِ هذه الحركة (تحوَّر) إلى أكثرَ من سالمين (جديد) بالجِيناتِ ذاتها لجَدِّهم (القديم) مع تحسيناتٍ في شروط التبعيَّة، وأخذِ حِصَّةٍ من ثمن اللبن، وبحَسْبِ الثقافة المحلية الشفاهية يُقَالُ هذا المثل في مَقَامِ السُّخريَةِ على شخصٍ ما أو سُلطَةٍ حاكمةٍ أو مكوَّنٍ اجتماعيٍّ تصدَّرَ المشهدَ شكليًّا لكنه في واقع الحال سُيِّرَ من جهاتٍ خَفِيَّةٍ أوْ شِبْهِ خفيَّةٍ، تحتَ شِعَاراتٍ برَّاقةٍ، ظاهرُها فيها البُطولةُ وباطنُها فيها الانبطاحُ.

وإذا اتَّسقَ سالمين (القديم) معَ زمانِهِ المَحكُومِ بوَطأة التَّرَاتُبِ الاجتماعيّ الذي دفعَهُ بقَبولٍ مَعْسُولِ الكَلامِ وخِدمَةِ سَيِّدِهِ بوَصفِهِ قَدَرًا لا فَكَاكَ منه ولا مَنَاصَ عنه، فإن السالمين (الجُدُدَ) وتحتَ عَبَاءَةِ تقمُّصِ دَوْرِ الوَقَارِ ومَظَاهِرِ الوَجَاهةِ بدَّلُوا جُلُودَهُم؛ ليتَّسِقُوا معَ المقامِ أو الدَّوْرِ المَنُوطِ بهم، كُلٌّ في مجاله، فإذا قامَ واعظًا لَبِسَ ثوبَ الوَاعِظِينَ، وإذا وقفَ حاكمًا قلَّدَ نفسَه أرفعَ النياشين، وإذا قامَ مُنَاضِلًا أدخلَ نفسَه في زُمْرَةِ المُقَاوِمين.

وسالمين (النَّمُوذَجُ) شخصيةٌ عَابِرَةٌ للتاريخِ والقاراتِ بكيفيَّاتٍ متنوّعةٍ، وبإطلالةٍ على مُقَارَبَاتِ التاريخِ سنجدُ ضالَّتَنا في نَمَاذِجَ كثيرةٍ. أمَّا في هذا الزمان فحدِّثْ ولا حَرَجَ، وقبلَ أنْ نستعرضَ عيّناتٍ من (النماذج السالمينية) ولتقريبِ الصُّورَةِ سنعملُ على فَرْزِ العيّناتِ المختلفةِ بحَسْبِ طبيعةِ دَورِهَا فهُنَاكَ (سالمين) بالإكراه، وآخَرُ بالاختيار، وصِنْفٌ مُخَاتِلٌ وهو في الدَّرْكِ الأسفلِ من (النِّفَاقِ)، ومن عيّناتِ الصنفِ الأوَّلِ في العُصُورِ الوُسْطَى نجدُ مثالًا صَارِخًا في مرحلة ضَعْفِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ عندما تمكَّنتْ مراكزُ القُوَى غيرُ العربيَّةِ من السيطرة على مَقَاليدِ الحُكم، وامتلكتِ القُدرَةَ على تنصيبِ الخُلَفَاءِ وعَزلِهم، فصارَ الخُلَفَاءُ يَملِكُونَ ولا يَحكُمُونَ، بينما يستمرُّ الدُّعَاءُ لهم في المَنَابرِ بطُولِ العُمْرِ، وبالنَّصرِ المؤزَّرِ على الكافرين.

ومنْ عيّناتِ التبعيَّةِ الاختياريَّةِ نلاحظُها عندما استطاعَ الرئيسُ الرُوسيُّ الحاليُّ (بوتين) بعدَ أنِ انتهتْ مُدَّةُ رئاستِهِ منْ تمكينِ رَجُلٍ من رجاله للوُصُولِ إلى رئاسةِ الاتِّحَادِ الروسيّ؛ لأنَّ موادَّ الدَّستُورِ تُعطِي فُرصةً لإعادةِ الانتخابِ للرئاسةِ بعدَ وُصُولِ وَجْهٍ جديدٍ، فأتقنت (العيّنةُ) دورَها في الحُكم ظاهريا، واستمرَّ (الرئيسُ) بوتين يحكُمُ مِنْ خلفِ الدستور إلى أنْ عادَ رئيسًا بعدَ نهايةِ المشهدِ وهو مُطَعَّمٌ بموادِّ الدستور نفسِه.

وهُناكَ الذين تداخلتْ ثُنَائيَّةُ الاختيارِ والإكراهِ في صَولاتِهم وجَولاتِهم، ويمكنُنَا أن نختارَ عيّنةً من حُكَّامِ جَنُوبِ الجزيرةِ العربيَّةِ الذين ارتبطوا بمُعَاهَداتِ حِمَايَةٍ واستشارةٍ معَ المُستَعْمِرِين البريطانيّين، فصار المُستَشَارُونَ البريطانيُّون لهم كلمةٌ قويَّةٌ في إدارة شؤون الحكمِ في بلدانهم، لكنَّهم وبذكاءٍ ابقَوا على مظاهِرِ الاحترامِ للحُكَّامِ أمامَ شُعُوبِهم من خلالِ الألقابِ التي مَنَحُوها لهم ومراسيمِ التشريفاتِ بإطلاقِ مدافعِ الترحيبِ بهم، خاصة عندما يتوافدون على كبيرهم في المستعمرة عدن، ونحن بذكرنا هذه العيّناتِ وربطِها بِفِكرَةِ المثلِ العامَّةِ إنَّما نُحَاوِلُ - كما قلنا - تقريبَ الصُّورَةِ ولَسْنا مَعْنِيّينَ في الخَوضِ في المَلَابَسَاتِ والتفاصيلِ التي نالتْ حظًّا من الاهتمام عند المحلِّلين والمؤرِّخين.

أمَّا السَّلالاتُ الأكثرُ فتكًا من تحوُّرات (سالمين) الجديد فتتمثَّل في تلك (الكائنات) التي تُجِيدُ التخفّي، وتتظاهرُ بالشَّرَفِ والنَّزاهَةِ والحِكمَةِ وهي تنتشرُ حدَّ الوَبَاءِ، وأحيانًا الجائحة في المجتمعات الهشَّة، التي تتَّسمُ بضَعْفِ مؤسَّساتِ الحُكمِ وارتِبَاكِ العدالة، وهذه السلالات تمتلكُ مواهبَ فائقةً في تقمُّصِ دَورِ البُطُولَةِ، والقُدرَةِ على القيادةِ والوَجاهةِ الاجتماعية. وهؤلاء لا يَجِدُونَ غَضَاضةً بأنْ يكونوا بيادقَ بيد الحُكَّام الفاسدين وأشباههم، كما أنهم يستمرُّون في وضعٍ نشطٍ لقبولِ المناصِبِ وتصدُّرِ المشاهدَ المُخاتلةَ تحتَ غطاءِ (إصلاح ما يمكنُ إصلاحَه وخدمة الوطن)، مع أنهم يعلمون حقَّ اليقينِ حدودَ دَورِهِم في تحسين مظهر الفاسدين، وسترِ عَورَاتِهِم، ومع هذا يَستَعذِبُونَ لُعبةَ الاستغماية كما جدّهم القديم، وبعد أن يشبعوا يحورون من أنفسهم بحُجَّةِ صَحوَةِ الضمير. لكنَّهم لا يُغَادِرُونَ إلَّا بعدَ أنْ يُغَاثَ الحاكمُ بعيّنةٍ مُمَاثِلةٍ من السلالة نفسِها والتحوُّرِ ذاته.

إن هذه التحوُّراتِ النشطةَ والسلالاتِ المتجدّدَةَ لا تُلغِي الجَذرَ الجِينيَّ لقبيلة (سالمين) وواحدية دَورِهِم (التَّاريخيّ) في خدمة الأسيادِ، صحيحٌ أنَّ الأحفاد احتالوا للحصول على حصَّتِهم من اللبن، لكنَّهم جميعًا بشكلٍ أو بآخرَ استحلُّوا لعبة الاستغماية؛ كي يَنسَابَ اللبنُ للأسياد، ثمَّ يصدّقُ الفارسُ سالمين نفسه، ويحملُ لواءَ التسميةِ، ويَخلَدُ إلى النوم بعدَ أن يحكيَ لنفسه بعضَ صَوْلاتِهِ وجَوْلاتِهِ.

ملحوظة ليست من أصل المقال:

سالمين النموذج بحسب المثل الشعبي الحضرمي لا علاقة له بمن يُسَمَّى (سالمين) من أهلنا الكرام الشرفاء، إنما هي تسميةٌ مُسْتَعَارَةٌ من هذا المثل لتوضيح فكرته، وهي في الأصل تَنُوبُ عن أيّ مُسَمًّى لأيّ (كائن) فَقَدَ الإدارةَ الحُرَّةَ لنفسه..

"الشيخ شيخ والسيد ايش من طاهشة؟"

يزخر هذا المثل الحضرمي بالدلالات الاجتماعية، وبالإضاءات التاريخية، ويدفعنا نصه المباشر الاستفساري أو الاستنكاري إلى الولوج في منطلقات الحركة التاريخية لمفاهيم التراتب الاجتماعي، ومدى استماتة من هم على رأس الهرم التراتبي في ترسيخه للاحتفاظ بالمكانة الاجتماعية.

وبداية لابد لنا من وقفة مع هذا المثل لمعرفة سياقه التاريخي، وتوضيح مفرداته ففي الرواية الشفاهية الحضرمية ينسب المثل لبدوي سمع لفظة (السيد) لأول مرة بوصفها لقبًا ومنزلة اجتماعية جديدة على غير ما هو معروف من مكانة روحية لبعض أسر (المشايخ) الحضرمية عند القبائل الذين يمثلون مرجعيتهم في الأمور المتعلقة بالنواحي الدينية، وفي الصلح والسلام المجتمعي (والطاهشة): نوع من الطيور الغريب والنادر [سارجنت، حول مصادر التاريخ الحضرمي، ص١٢٤]، وبهذا نرى لفظة (الطاهشة) -بحسب المثل- وضعت في مكانها المناسب واتسقت مع التساؤل الاستنكاري الهجومي وربما (الاستغرابي)

ويكشف السياق التاريخي للنص أن لفظة (السيد) اللاحقة للفظة (الشيخ) ترسخت أولًا في المدن والبلدات الحضرمية ثم حدث ما يشبه التسليم من قبل تراتبية المشايخ بالمكانة الاجتماعية الأولى للسادة في المجتمع الحضرمي لاسيما بعد الاعتراف المجتمعي بنسبهم الذي يرفعونه إلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من ابنته فاطمة زوج علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وهذا النسب مكّنهم مع ميزة (العلم) والوظيفة الاجتماعية في تبوء هذه المكانة. الجدير بالإشارة أن لفظة الشيخ بوصفها

مكانة علمية ووجاهة مجتمعية اقترنت بالعلويين في بدايات ظهورهم متماهين في ذلك لبضع قرون مع أسر المشايخ العريقة في حضرموت إلى أن ميزوا أنفسهم بلقب (السيد) بوصفها مرتبة عليا على الجميع احترامها، وفي خضم التنافس على المكانة الاجتماعية وتعزيزها النسبي رفعت بعض أسر المشايخ أنسابها إلى بني هاشم او قبيلة قريش أو إلى بعض كبار الصحابة وتحصلوا على الاعتراف المجتمعي بهذه الأنساب، وقد تعاملت الأدبيات المحسوبة على العلويين الحضارمة بمرونة وذكاء مع هذه الحركة مما أسهم في التخفيف من التنافس أو الصراع على المكانة الاجتماعية بينهما بل أسهمت هذه الأدبيات في تأكيد حركة بعض الأنساب بالرؤيا المنامية .

وفي المقابل بقيت معظم أسر المشايخ تحت توصيف (مشايخ علم) وهي منزلة أدنى من مرتبة مشايخ (الأصل) بل أدنى من مرتبة القبائل التي ترمز للقوة، وأبرز مظاهر هذا التراتب نجده عند الزواج الأفقي الصارم في حضرموت، لكن في إطار العلاقات بين أسر المشايخ مع القبائل المرتبطة بها روحيا استمرت الوظيفة الاجتماعية للمشايخ (الأصل والعلم) بصورة متقاربة.

ولهذا نستطيع في زمن البنية الاجتماعية التقليدية في حضرموت رسم مفاهيم التراتب بوضع السادة والمشايخ - يرمزون للعلم - في شريحة واحدة، والقبائل وهم حملة السلاح في شريحة مستقلة، وسكان الحواضر والمدن في شريحة واحدة (الحضر) وهذا لا يلغي الحركة الداخلية لهذه الشرائح صعودًا وهبوطًا، وحتى في داخل شريحة السادة يوجد التمايز المحكوم بالمستوى العلمي، والوضع الاقتصادي.

وإذا كان المجال الجغرافي من حيث مواطن الاستقرار ممكن تحديده بين القبائل والحضر فإن أسر من سادة حضرموت ومشايخها تمكنوا من الاستقرار في عمق أراضي القبائل المستقرة، ومع مرور الزمن تغيرت المعادلة لصالح سادة حضرموت - وإلى حد

ما المشايخ- فصار للأسر الكبيرة منهم مثل آل العيدروس وآل العطاس وآل الشيخ أبوبكر وآل مول الدويلة وغيرهم مكانة تحالفية خاصة مع بعض القبائل، وصار من الأمور المتعارف عليها قول السيد: (هذه قبائلنا) بمعنى تحت أمرنا أو طوعنا، ويقابله قول رجال القبائل للأسر المتحالفة معهم: (هؤلاء حبايبنا) أي مراجعنا الروحية، والتحالف ليس بمعنى الدفاع المشترك، بل يقوم على الاعتراف بالمكانة الاجتماعية للسادة واحترامها مع الالتزام بحمايتهم من الأطراف المعادية مقابل قيام السادة بالوظيفة الاجتماعية الروحية في مجتمع القبيلة الذي تسوده الأمية، وبما يمكن وصفه بتغير دراماتيكي لمثل (الطاهشة) وصلت مكانة السادة عند رجال القبائل إلى درجة من التقدير بحيث إذا دخل (القبيلي) مجلسًا عامًا يسأل أولًا هل فيكم سيِّد ؟ وإذا وجد يتجه مباشرة إليه ويصافحه ويقبل يده، وبهذا تحول (الطواهش) إلى كائنات مبجلة تحتل صدارة المجالس، وهذا يعني أيضا تغيّر في صيغة سؤال عنوان المقال من الاستنكار والاستغراب إلى سؤال التقدير والاحترام.

لكن دوام الحال من الحال فالانسجام المجتمعي التقليدي في حضرموت ارتبط بجمود الحركة الاقتصادية والثقافية، وبدأ التصدع في هذه البنية بصورة بطيئة، وارتبط بعوامل خارجية خاصة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي عندما نافست السفن البخارية السفن الشراعية في حركة الملاحة البحرية الدولية، كما أن شق قناة السويس في نوفمبر ١٨٦٩م دفع بتسارع وتيرة هذه الحركة وانتظامها، وكانت حضرموت وطيورها المهاجرة على موعد تاريخي للاستفادة من هذه الحركة فازداد عدد المهاجرين شرقاً وغرباً. وهذه الهجرة قلبت الأوضاع الاقتصادية رأسا على عقب، وارتبط الحضارمة بحركة الحداثة في بلدان الهجرة وأدى ذلك إلى إعادة تدوير تساؤلات المكانة الاجتماعية ومحالات تغييرها وظهرت (طواهش) جديدة من جميع الاتجاهات!!

وإلى ما قبل سقوط سلطنتي حضرموت القعيطية والكثيرية عام ١٩٦٧م ورغم التصدعات في البنية التقليدية في حضرموت، فإن مفاهيم التراتب الاجتماعي ظلت سائدة بالمسميات التقليدية مثل(مقادمة القبائل) وهو رئيس القبيلة أو قائدها، وهناك مفهوم (المناصب) الذي اشترك فيه أسر من سادة حضرموت ومشايخها ويعني المرجعية الاجتماعية لبعض القبائل لاسيما في حالات عقد التحالفات، وحل الخصومات وظل (الشيخ شيخ)، و(السيد سيد)، ومع تحديث التعليم في حضرموت تحركت لفظة الشيخ عندما لقّب المدرسون بالمشايخ، وهي منزلة رفيعة حظوا بها تتسق مع الوظيفة التعليمية للمشايخ في حضرموت.

في عهد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تم تهديم هذا البناء المجتمعي التقليدي، ووصف بالرجعي والمتخلف، وظهرت شعارات ثورية جديدة أعطت للحضر مكانة متقدمة في السلطة ومن نماذج تلك الشعارات: " واشعلناها ثورة حمراء باسم العامل والفلاح" و : " بغينا حقنا ما بغينا شيء باطل مع الصياد لاهز راسه بانقاتل " وبهذا تراجعت لفظتا السادة والمشايخ بل صارتا قريبتين من (التهمة) وجاءت مفردات جديدة مثل الأخ، والرفيق، والكادحين، والقوى العاملة.

وعندما صارت حضرموت جزءاً من الجمهورية العربية اليمنية حيث يلقب رؤساء القبائل عندهم (بالشيخ) التي تنم عن وجاهة قبلية ومجتمعية تحركت لفظة الشيخ، واستقرت بوصفها لقبًا جديدًا من ثقافة المنتصر- بحسب رأي ابن خلدون - لمقادمة القبائل بدلا من لقب (المقدم) التاريخي (الأصيل) المتعارف عليه، كما تحركت أيضًا لفظة الشيخ وصارت تطلق على أفراد الأسر التجارية الكبرى، وعلى صنف المتسلقين، ولهذا انهارت رمزية لفظة (الشيخ) العلمية. أما لفظة (السادة) رغم خفوت بريقها التاريخي فإنها صمدت ولم تنحرف عن مسارها، واستمرت بصبر تصارع المراحل، وبهذا يحق لنا إعادة تحوير المثل بالقول: (السيد سيد والمقدم مقدم والشيخ ايش من طاهشة).

"الشوق ولا المشقة"

تقال هذه (الجملة) في مواقف خاصة، ورغم وضوحها، وجمال تركيبها، وربما شعريتها فقد وجدتُ صعوبة في تصنيفها؛ فهل هي مثل شعبي؟ أو قول مأثور؟ وظللت في حيرة من أمري إلى أن سمعتها ذات يوم بنبرة حزينة من أُم صبورة، آثرت أن يكون لها سكن مستقل مع ابنها الصغير، بعيدًا عن بيت أسرتها الكبير رغم ما يبدو من تماسك البيت، وبِر أبنائها الكبار بها. عندها أحسست أن لفظتَي (الشوق – المشقة) المتسللتين بين شفتيها ما هما إلا واجهة من حروف متسقة لآهات خافتة، وتوجعات دفينة.

وسواء كانت هذه الجملة مثلًا أو قولًا مأثورًا، أو آهات، فإنها قريبة من الحكمة إن لم تكن هي الحكمة ذاتها. فمع ضغوطات الحياة وسرعة وتيرتها، وفجاءة تغيّراتها، يأتي التدافع بين الناس في داخل الأسرة النووية إلى ما هو أبعد من ذلك من مستويات اجتماعية، بل علاقات بين الدول. وفي قلب هذا المعترك والتداخل تبرز خيارات صعبة، منها الصدام المباشر، أو الفراق الذي لا عودة بعده، وهناك من يسلك الطريق الأقل خسارة وإن طالت، وهو اختيار لحظة الفراق وحبل الود قائمًا ومتينًا كحال تلك الأم العظيمة – وكل الأمهات عظيمات – التي قبضت على قلبها، وضحَّت بسعادتها في العيش وسط أبنائها درءًا لاحتمالات مواقف قد تعكر صفوها، وصفو أسرتها، "والقلوب مثل الزجاجة كسرها لا يجبر".

في العلاقات الإنسانية البينية لا تخلو كل الأسر، والصداقات، والزمالات من القطيعة، والاختلافات، والفروق نجدها في الكيفية التي تدار بها الاختلافات والخلافات،

وكلما شعر الطرفان بمصلحة مشتركة في التقارب قدموا بوعي تنازلات، ووضعوا مسافات محايدة، تحد أو تقلل من حدة القطيعة، والنتائج الوخيمة للخصومات والمنازعات تبرز عادة عندما يهرول المتدافعون دون مسافات محسوبة. وعلى أية حال فإن الحياة الإنسانية ما هي إلا كتلة واحدة، تتداخل فيها حركتا التداني والتنائي، وتتقاطع، وهذا يعطي للحياة حيويتها بأفراحها وأحزانها.

أما العلاقات الدولية فتحكمها المصالح، وقانون القوة، لا العواطف، إلا إذا كانت محققةً المصالح، لهذا عندما دخلت فرنسا وألمانيا - على سبيل المثال - في حربين عالميتين استعماريتين، وسقط من الجانبين ملايين الضحايا، ورغم ما بينهما من تاريخ من العداوة؛ فإنهما بعد أن سكتت المدافع وضعوا هذا العبء التاريخي في كفة، ومصالحهم المستقبلية المشتركة في كفة أخرى، فانحازوا لمصالحهم ومستقبلهم. بمعنى آخر تغلَّب صوت العقل على رهافة العواطف، فصار لا مكان للشوق، ولا دواعي للمشقة.

أما حُكَّام العرب وما أدراك ما حكام العرب فالكتلة العاطفية عندهم تطغى على أعمال العقل، ولاسيما عندما يختلفون ويتنازعون فيما بينهم، بل تجد في كثير من الأحايين الفجور في الخصوم، فمثلًا عندما يزعل الحاكم العربي من أخيه العربي يتم قطع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، والإنسانية، وتشتغل الأبواق الإعلامية للطرفين على التعبئة، مستخدمة كل الأساليب والألفاظ المسيئة، وفضح الأسرار. كما يتم طرد طلاب العلم، والعمالة، وتهتز علاقات التصاهر عندما يكون الزوج أو الزوجة من (الدولة المعادية) وكأن الأمر سيستمر إلى يوم الدين، وبهذه المواقف العبثية تتحطم الأشواق، وتخيّم المشقة إلى أن تهدأ فورة الغضب، فيتغير الخطاب الإعلامي بنبرة لا تخلو من الرومانسية عن العروبة والأخُوَّة واللحمة، ووحدة المصير المشترك، "وما محبة إلا بعد عداوة" كما يقولون.

وبدافع هذه الحكمة (الشوق ولا المشقة) التي لا تكاد تفارق تفكيري، ولاسيما عندما تتجدد المشاحنات والصراعات العربية العربية رغم تعقيداتها أسائل نفسي -بمثالية المثقف، وحرقة المحب، المؤمن بوحدة مصير العرب، واستراتيجية مصالحهم - لماذا - نحن العرب الذين تجمعنا أواصر الدين والتاريخ المشترك والثقافة والجغرافيا - لا نقدم مصالح شعوبنا على مشاعر الغضب العابرة عند حُكَّامنا؟ لماذا الحاكم هو كل الشعب؟ لماذا تتخندق النخب المثقفة خلف المراسيم الرسمية؟ لماذا يغضبون بالعدوى؟

الإجابات معروفة، لكننا ندفع – نحن العرب إزاءها – أثمانًا باهظة، تتصاعد بمتوالية هندسية مع مستوى الغضب عند الحكام، مقابل انتصارات (دون كيشوتية) أو إعلامية، تفتح لأجلها خزائن الدول بمفاتيحها التي تنوء عن حملها العصبة أولو القوة في صفقات تكديس السلاح وشراء رضا الدول الكبرى، وهم دائمًا الكتلة السعيدة في مشهد الغضب العربي التعيس.

إن التدافع بين الناس، والدول حقيقة مؤكدة ومستمرة، وبما أن تبعات (الغضب) بالنسبة (للدول الشقيقة) أكبر وأمرُّ، فما أحوجَ العربَ إلى ميثاق شرف –من أجلهم– يضبطون به خلافاتهم، وانفعالاتهم الجامحة، (ويصنعون) مسافة زمنية محايدة، تتهيأ فيها فرص كبيرة، يكون فيها من الشوق رسول بينهم.

* * *

"دفرنا وبغيت المسقط"

كلمات هذا المثل الحضرمي فصيحة وليست عامِّيَّة، وهي واضحة في معانيها، ومباشرة في فكرتها، وغالبًا ما تقال لمن يريد اتخاذ قرار ما لكنه متردِّد لأسباب معينة، وفي الوقت نفسه يتمنى مَنْ يدفعه إليه أو يجبره عليه، وعندما يقال المثل من متكلم إلى آخر مستمع يدخل في باب السخرية، والغيبة والنميمة، وهذا الصنف الذي يتمنى (المساقط) قد يكون من مُدَّعِي الوطنية، والنزاهة والشرف، لكنه في باطنه يرغب في المناصب ذات الامتيازات الكبيرة أو الفرص (الذهبية)، حتى مع وجود مؤشرات بسقوطه في دهاليزها، لكنه يدَّعي (الموافقة) على مضض، وبعد وساطات (الوجهاء والعقلاء) وإلحاحهم، أو تحت سقف إصلاح ما يمكن إصلاحه، أو بحجة إعطاء فرصة في دور (للصالحين) لترميم ما يفسده (الطالحون)، وهذا النوع المنافق غالبًا ما يكون على حافات السقوط، ويجيد تمثيل دور البطولة، بل يطلق المزيد من الكلمات الوطنية الرنانة؛ كي يصل اسمه، ويسمع صوته من به صممٌ، لكنه يجعل أبوابه مواربة؛ ليطمئن فيها جميع الأطراف بأنه حبيب الكل.

وعندما يُردِّد هذا المثلَ (دفرنا وبغيت المسقط) شخصٌ على لسان حاله فغالبًا يوجه خطابه لجهات صديقة؛ ليبيّن موقفه البطولي الاضطراري لفعلته التي فعلها. أما إذا كانت الجهة غير صديقة أو محايدة فهو يردد المثل من باب الهجمة الاستباقية؛ ليدفع عن نفسه لومة اللائمين، وفي الحالتين يتصف (الساقط) - من هذا النوع - بالشفافية والقدرة على المواجهة وهو يدافع عن نفسه من وجهة نظره الخاصة، ويبقى حق المستمعين في قبول روايته أو رفضها وفقًا لقناعاتهم الخاصة، وبمدى ما يقدِّمه (المدفور) من حجج وبراهين.

ويحضر المثل في جانبه الإيجابي عندما يكون شخصًا مناسبًا في المنصب المناسب، والظروف المناسبة، لكن تغيرت الأحوال والظروف وصار عليه أن يغض الطرف عن تصرفات وإجراءات تتناقض مع قيمه ومبادئه، لكنه لا يستطيع أن يعارض بشكل مباشر درءًا لرَدَّة فعل ثورية عنيفة، أو مذهبية متعصبة، فيبدأ بانتهاج سياسة السقوط التدريجي عن طريق المناورة الذكية، التي تقرّبه إلى حافة السقوط بحيث تجد الأطراف (الدافرة) من مصلحتها إيجاد البديل الخفيف، وهم كثر يتزاحمون عند حافات (السقوط).

إن الفطرة السليمة تجعل ممن عندهم اعتداد بأنفسهم يتجنبون التهافت على المناصب حتى ولو كانوا مؤهلين لها، ويستحقونها، بل يتجنبون بحياء صادق لفت الأنظار إليهم، فضلًا عن الطلب من طرف صديق صناعة (دفرة) إليها، كما أن الوعي الجمعي يستنكف موقف المتطاولين والمتعرضين، ثم إن المسلمين عندهم قاعدة نبوية تقول : "طالب الولاية لا يُوَلَّى"، لكننا نجد في موقف سيدنا يوسف (عليه السلام) بعد تفسيره لرؤيا الملك المصري – بحسب قصة القرآن العظيم – مقاربة إيجابية تستحق الإشارة خاصة بعد أن قال له الملك : " إنك لدينا مكين أمين "، فبادر سيدنا يوسف وطلب - مع المكانة الرفيعة التي حظي بها - أن يكون مسؤولًا عن خزائن الأرض وقيِّمًا عليها، وهي وظيفة مستقبلية؛ لأن الخزائن ستكون عامرة في السنين السبع السمان القادمة كما أوحى الله بها إليه، والمشهد كله يدخل في العناية والتدبير الإلهي، لكن الموقف يعطي درسًا نبيلًا يشجع على الإقدام بثقة في المواقف التي تستدعي التصدي والتحدي، ويشبه هذا من قريب موقف الفارس الذي قبل مبارزة فارس أقوى منه بقراره الخاص دون أن ينتظر موافقة من قائده أو جندي (يدفره).

إن ازدهار هذا المثل (الدفرة والسقطة) غالبًا ما يكون في المجتمعات الهشة التي تربَّى فيها الأجيال على ثقافة الخوف، ولا تشجع مؤسساتها التعليمية ولا الأسر على فضيلة الثقة بالنفس، وحب الإقدام والشجاعة والمغامرة، وتغيب عنها ثقافة الشفافية، وعدالة الفرص، وقوة القانون، وحيث يسند فيها القيادة والإدارة إلى أصحاب الثقة، وليس أصحاب الكفاءات لهذا تكثر في هذه المجتمعات حافات السقوط، ويهرول إليها المتساقطون وهم يعلمون.

أما دلالات المثل وارتباطاته بالشخصية الحضرمية فتحيل إلى منحى سلبيٍّ، ينمُّ عن شخصية خجولة مترددة، تتجنَّب ما يمكن وصفة بثقافة اللوم عند عرض أفكار بناءة، أو محاولات جادة للتطوير، أو قرارات مفصلية، لهذا نلاحظ الجمود في واقعهم، والرتابة في حركتهم، وقلة من الرواد، والمبادرين، والمتميزين في داخل بلادهم إلا في مواقف معدودات، بينما المهاجرون منهم - من منظور هذا المثل - تحرَّروا من أعباء ثقافة اللوم المحبطة، وشَقُّوا طريقهم إلى أرزاقهم التي كتبها الله لهم، ووفق هذا المنظور ممكن القول إن المهاجرين - بصرف النظر عن تبعات الهجرة - هم مَنْ (دفروا) أنفسهم بأنفسهم، أما مَنْ مكث في الأرض؛ فمنهم من ينتظر(دفره)، ومنهم مَنْ يتمنَّى (سقطة)، وما بدَّلوا تبديلًا.

* * *

"يهزها وهي في الجفير"

مقولة حضرمية مشهورة إذا قيلت بهذه الصيغة يقصد بها: أن (فلان) هز الجنبية وهي في الجفير(الغمد) فلا هو الذي رفعها، ولا هو الذي تركها، وأحيانا تأتي من باب النصيحة بفعل الأمر المباشر (لا تهزها في الجفير) أي يا (فلان) عليك اتخاذ القرار ولا تتردد وهذا هو الغرض الأساسي من المقولة، وهو التأكيد على أن يستقر المرء على رأي أو موقف، ولا يراوح حول نفسه إذا خطا إلى الأمام خطوة خطا غيرها إلى الخلف.

ويحيل لفظة الجنبية في هذه المقولة إلى رجال القبائل الذين كانوا يحملون السلاح الناري والأبيض. والجنبية عندهم إلى جانب وظيفتها للطعن عند الضرورة القصوى فإنها أيضا للزينة والوجاهة أو (البريستيج) فيتعمد (البدوي) الظهور بها بوصفها علامة تراتبية اجتماعية ترمز للقوة والرجولة. ولهذا يمكن القول إن مصدر المقولة هي بادية حضرموت لكنها لقوة دلالتها وجدت طريقها إلى المناطق الأخرى، وصارت حاضرة في الثقافة الشفاهية تقال في مواقف النصيحة المخلصة، وعند النميمة المغرضة.

وفي أعماق هذا المعنى الظاهري من المقولة - الذي يشي إلى السلاح والطعن ويدعو إلى الحسم - مغزى حضاري سلوكي غير مباشر يؤشر إلى القدرة على ضبط النفس، والتأني عند الغضب، أو الخصام العابر، ويشي أيضاً إلى أن رمزية الجنبية القتالية وشرفها برفعها عند الضرورة وخاصة للدفاع عن النفس، ولهذا يوسم من يتعجل برفعها في غير محلها بالخفة والتهور.

ويضبط هذا السلوك المتزن أعراف وعادات قبلية متوارثة تجعل من يشهر الجنبية بالتهديد بواقع جريمة تحسب عند التحكيم القبلي بنصف (قاتل) ولهذا يلزم من شهرها بدفع نصف الدية وهذه الصرامة في الأعراف، والكلفة الباهظة للمحكوم عليه رسخت معاني تؤكد على عِظم حرمة الدماء وعلى عدم الاستهانة بالآخرين وترويعهم.

هذه الضوابط غابت عند المجتمعات التي تسمح قوانينها بحمل السلاح خارج البيوت ولهذا تتسارع الايدي إلى (الزناد) خاصة عندما يشتد الغضب بين الأطراف المتنازعة، وهذا يجعل من الأماكن العامة بيئة غير آمنة تكون فيها حياة الأبرياء مرهونة بمزاج من يحملون السلاح، ومنذ مرحلة مبكرة في عهد سلطنتي حضرموت الكثيرية والقعيطية تم الانتباه الرسمي لخطورة حمل السلاح في المدن المسورة لهذا أجبر كل من يدخل المدينة المسورة تسليم سلاحه الناري والأبيض عند بوابتها (السدة). ولأهمية السلم المجتمعي سنت الكثير من الدول الحديثة القوانين التي تجرم حمل السلاح ومنها الأبيض في الأماكن العامة لتخفيف إصابات العراك المحتمل "وباب يأتي منه ريح سده وأستريح".

وهناك خيوط رفيعة تفصل بين ثنائية (التردد والتريث) التي تحملها دلالات المقولة "هزها في الجفير" لكن صفة التردد هي التي تتناسب مع مقام المقولة وصارت جزءًا من الثقافة المحلية التي تسير كالدماء في الشخصية الحضرمية. وممكن ملاحظة تطبيقات المقولة في مختلف مناحي الحياة فهي تقال عند تردد الأفراد في اختيار وظيفة أو عروسة أو تخصص علمي أو عمل مشروع تجاري، وغيرها كثير، وهناك فرق بين دراسة الموضوع وموازنة الإيجابيات والسلبيات التي تجعل (الاهتزاز) مجرد تريث محمود، وبين مرحلة اللاقرار التي تجعل (الاهتزاز) مفتوح الزمان وكثيرا ما يأتي بعد فوات الأوان.

وإذا كان القرار الفردي يتحمل تبعاته أصحابه، فإن القرار المجتمعي يكون الأصعب لأن أطراف المجتمع لها حساباتها وطريقة تفكيرها وتنوع مصالحها وتطلعاتها نحن هنا

نشير إلى مجتمع لا يوجد به مرجعية يحترمها الأغلبية من أفراده كأن تكون مجلس شورى أو برلمانًا منتخبًا، أو مكونات مجتمعية فاعلة لهذا المجتمعات المفككة تواجه التحديات الماثلة بالضعف والاستكانة والهزهزة.

وإذا ضربنا مثلا بحضرموت المعاصرة فإن المشهد فيها لا يزال في مرحلة "هز الجفير" فرغم حضرموت غنية بثرواتها فإنها فقيرة ببنيتها التحتية على كل المستويات ويتسول أهلها المساعدات الشقيقة والدولية، ولهذا فإن مطالب الحضارمة بحقوقهم عادلة بكل الشرائع السماوية والقوانين الوضعية " ومحد يلقي سقاية وأهل بيته ظماء " ومع هذا لم يستطع الحضارمة اتخاذ قرار يجعلهم يتمكنون فيه ولو بنصف حقوقهم مع وجود عناصر مشجعة ومساعدة في تشابك النسيج الاجتماعي، ولهذا وعلى هدي (ثقافة) هذه المقولة يرددون في بياناتهم ألفاظًا مثل (نطالب - نناشد – ندعو – نلفت – نرجو- سنضطر- سنلجأ- سنعمل) وهلم جرا.. صحيح هذه الألفاظ تحمل معاني ثنائية (التريث والتردد) لكنهم لم يتجاوزوها، وهناك محاولات عملية متقدمة لتوصيل صوتهم ومطالبهم مثل (الهبة الحضرمية) وبعد ذلك تحركات ما عرف (بلجنة التصعيد) لكنهما على صداهما القوي لم تحققا أهدافهما المعلنة.

في هذه الأيام (أكتوبر – نوفمبر٢٠٢١) تبنت نقابة أعضاء هيئة التدريس بجامعة حضرموت قضيتها العادلة، وتسعى للملمة شرائح المجتمع والكيانات الأهلية والنقابية لتشكيل موقف جمعي بخطوات منظمة، وفي بدايات جهودها استنفذت بيانتها المبكرة مفردات ثقافة (هز الجفير) وصار أمامها في الأيام المقبلة تحديات كبيرة، وقرارات صعبة..

" ومكره أخاك لا بطل"

* * *

"ماشي [لاشيء] بلاش إلا نطح الكباش"

عند إعادة قراءتي لبعض الأمثال الشعبية، دائماً أركز على فكرة المثل الأساسية، ولا أبحث عن القائل، ولا عن مناسبة ظهوره وزمانه؛ لأنني أرى أن المثل الذي استحق البقاء والانتشار ما هو إلا تعبير عن ثقافة مجتمع، استطاع قائله تكثيفها بكلمات عكست ما يجيش في صدور الناس، وما يخطر ببالهم؛ لهذا لاقى قبولًا جمعيًّا، ثم صار مع مرور الزمن ملكية عامة تتوارثها الأجيال، وتتناقلها الألسن.

ومع هذا هناك دافع جعلني أتخيل مشهد تخلق هذا المثل . في العنوان أعلاه . في سوق الأغنام حيث وجود مشترٍ يقلب فيها، ويريد (كبشًا) بالمجان (ببلاش)، والبلاش هنا في عرف البيع والشراء هو الثمن البخس؛ لهذا يقولون: "اشترى ببلاش" بعد أي صفقة نجح المشتري فيها دفع مبلغ زهيد من المال، والمحذوف قبل كلمة (ببلاش) هو التشبيه المفهوم ضِمنًا (كأنه اشترى ببلاش)، واستكمالًا لمشهد التخيلات ألاحظ في السوق مشتريًا يلاطف (الكباش)، ويستفزها من باب التسلية لتنطح يده وهو يعرض المبلغ الزهيد ثمنًا لها فيرد عليه البائع بما معناه: إن السعر الضئيل لا يمكّنك من الشراء، لكن لا بأس أو مسموح لك اللعب مع الكباش.

وموسيقى نَص المثل، وطرافته تجعلنا نبقى قليلًا في (سوق الكباش) نتناطح مع ثنائية (البلاش – والكباش) على ما فيهما من اختلاف، وجناس، ورغم ما في المثل من نصائح ثمينة، وقيمة، وببلاش، فإنه يدفعنا إلى تساؤل فضولي من قبيل: هل تناطح الكباش الخالية من القرون دفاعًا عن النفس أو هو ضمن لعبة الكباش؟

لكن يبدو أنها . وهي الأسيرة المغلوبة على أمرها . تؤكد على حقها في الحياة؛ أو لعلها (والله أعلم) لا ترى في السوق إلا كباشًا تتصارع مع كباش.

وحتى نعود الى فكرة المثل علينا أولًا مغادرة سوق الكباش، وندخل سوقَ الناس ونحن مشبعون بدسومة حكمة المثل؛ الذي يقول بكل وضوح: إن كل هدف، وكل موقف، وكل وصول، وكل مكسب، له ثمن معلوم من جهد، وسهر، وصحة جسمية ومعاناة، وعرق، وألم، وإن السماء لا تمطر ذهبًا، ولا الأسماك تتسرب من البحر إلى البر عجبًا، وإنه من حصد زرع ومن نام كثيرًا ما نال...إلخ.

في سوق الناس تجد التجار يتنافسون في الأسعار، تنخفض قليلًا وترتفع ولكن لا شيء ببلاش، ومع هذا تجد البعض يبحث فيه عن شيء ببلاش، حتى يخيل إليك أنهم كباشٌ مثل الكباش فتجد في السوق شبابًا عاطلًا مفتول العضلات، ومع هذا يشكي حظه، ويقذف اللعنات، فهو يريد وظيفة حشيمة يكون بعدها شحيمًا، ولا يقبل غيرها بتاتًا، ثم إنه يريد أن يتزوج ويشتري السيارة، ويبني لنفسه قصرًا عاليًا، لكنه لا يريد مواجهة الظروف، أو يناطح التحديات، ويفضل أن يكون مرصونًا مشغولًا بالتفاهات، إلى حد أن من رآه يتساءل: هل هذا الكائن أعلى منزلة من الكباش أو أدنى؟ مع اعتذارنا للكباش.

ومن دخل سوق الكتب في بلادنا سيجدها بضاعة مزجاة، وسيشاهد في رفوفها عناوين لكتب تتزاحم وتكاد تناطح بعضها البعض، أحيانًا يداعب صفحاتها عشاق لها، لكنهم في مقام (العين طويلة واليد قصيرة)، ولا يحتضنها إلا الندرة النادرة ممن يؤثرون الكتب على أنفسهم، ولو بهم خصاصة، أو من أولئك الذين أيديهم طويلة، وجيوبهم عامرة، أما الأغلبية من القراء فهم في وضع منتظر كتاب ببلاش، أو بتصيد ما ارتفع منها في مواقع التواصل الاجتماعي، ولا ريب أن الظروف الاقتصادية الصعبة

عند أكثرهم تجعلهم لا يناطحون في سوق الكتب ولا يشترون، ويبقى المنسي في سوق الكتب، وربما المرصون بالديون هو المؤلف، أو المترجم، ثم بعدهما دور النشر التي تناطح من أجل البقاء؛ لهذا اختفت الكثير من المكتبات عندما خذلتها - بعذر قاهر - كتلة (ببلاش).

أما من دخل سوق الدول سيجد العجب العجاب، فبعض الحكام حولوا أوطانهم إلى ما يشبه زريبة الكباش، وألهوا شعوبهم بلعبة النطاح، ثم انشغلوا بالتهام أسمن الكباش، وصنف غريب من هؤلاء الحكام الذين (تكبّشوا) عندما توهموا أنهم أسودٌ فصادقوا الذئاب، فلا الذئاب تركتهم بعد أن جاعت، ولا هم قاتلوا مثل الأسود، ولا ناطحوا حتى مثل الكباش، فصاروا لقمة سمينة، وببلاش.

* * *

"يا أمريكا بتي لعبي نحن عيال قحطان الشعبي"

تشتغل الشعارات (الثورية) على تفجير العواطف وإلهاب المشاعر العامة (سيكولوجية الجماهير)، وهي في مضمونها تعبير عن واقع الحال بكلمات حادَّة مركَّزة غالبا ما تكون بلهجة عامية، وبنت لحظتها بحيث يصعب معرفة قائلها، بل بعضهم يتخفَّى عن عمد وسط الزحام لتتحول كلماته إلى مسؤولية جماعية أو تعبير عن موقف جمعي. ويذكرني حديث الشعارات الثورية بمرحلة السنة التمهيدية لدراسة الدكتوراه في بغداد عندما لفتت الأستاذة الدكتورة فوزية صابر – وهي عراقية من إقليم كردستان – أنظار طلاب دفعة ٢٠٠٠م إلى أهمية هذه الشعارات بوصفها مجالًا خصبًا للدراسات التاريخية والثقافية والنفسية واللغوية للشعوب، وذكرت لنا أنه بعد الثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩م دخل طالب دكتوراه فرنسي إلى مدينة طهران وسجل العبارات الثورية بكل مشاربها المكتوبة على اليافطات المعلقة وعلى جدران المباني، وكانت هذه مادته الأساسية التي بنى عليها أطروحته للدكتوراه.

وفي دراستي للمواقف الشعبية تجاه السياسية البريطانية في حضرموت حاولت قراءة نصوص شعارات اليافطات المتقدمة لمسيرة حاشدة في مدينة المكلا في ١٣ ديسمبر ١٩٥٠م تطالب بالشراكة في الحكم ونصوصها على النحو الآتي: اليافطة الأولى "الشعب يريد تحقيق مطالبه"، والثانية "نريد سكرتيرًا وطنيًا"، والثالثة "الوطن للوطني". ولا ريب، كانت القراءة التحليلية بصدى ذلك النقاش في قاعات الدرس العلمي في جامعة بغداد الذي يتم التركيز فيه على قضايا التفكير التاريخي أكثر منه تقنيات السرد التاريخي.

وخلال الستة العقود الماضية ترددت في حضرموت والجنوب واليمن أصداء الشعارات الثورية والحماسية لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهي مادة دسمة تستحق الدراسة الأكاديمية بوصفها أنساقًا ثقافية وتاريخية لهذه العقود المليئة بالصخب، والفقيرة من التنمية، والبعيدة عن الحكم الرشيد.

وإذا استعرضنا شعار عنوان هذا المقال الذي رُدِّدَ في مدة حكم الرئيس قحطان الشعبي (أول رئيس لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية ١٩٦٧- ١٩٦٩م) فيبدو من لفظة (بِتّي) الحضرمية العامية أنه من صناعة حضرموت (الثائرة) وموجه لطلاب المدارس الابتدائية، ويقصد يا أمريكا (بِتّي) أي يا أمريكا (اذهبي)، ولفظة العيال بحسب سياق الشعار بمعنى رجال الرئيس المخلصين له، لكن الرئيس قحطان الشعبي خسر اللعب من داخل فريقه (الجبهة القومية)، أما أمريكا فقد لعبت مع العرب وأحرزت الكثير من الأهداف "والذي تغلبه تلعبه" ويدخل هذا الشعار المتحدي الولايات المتحدة الأمريكية ضمن الشعارات التي تتوارى بعد أيام من (صناعتها)، يشبه ذلك شعار قومي ظهر بعد هزيمة مصر في ٥ يونيو ١٩٦٧م ثم خطاب إعلان التنحي المشهور للزعيم العربي المصري فكانت مدينة المكلا ولعلها حضرموت (الناصرية) تردد (يا بو خالد لا تهتم نحن جبهة تشرب دم)، و(بو خالد) هي كنية الرئيس المصري جمال عبدالناصر.

ولا نهدف من هذا المقال دراسة بنية نصوص الشعارات ودلالاتها إنما أردنا التنبيه إلى أهمية دراستها بالمنهجية العلمية التي تضع الأمور في سياقها التاريخي لكنني لن أغادر هذا المقال قبل الإشارة إلى نماذج من الشعارات مثل "سالمين نحن أشبالك وأفكارك لنا مصباح * وأشعلناها ثورة حمراء باسم العامل والفلاح"، وهو نص ثري وذو شجون ويحمل معنى التغيير برؤية فكرية واضحة، ولا مقارنة بينه وبين شعار

الجمهورية اليمنية "بالروح والدم نفديك يا علي"، ويقصدون الرئيس الأسبق علي عبد الله صالح. وبمقارنة سريعة بين الشعارين نجد الشعار (السالميني) يحلق مع فكرة الاشتراكية، والشعار (الوحدوي) ينهار تحت أقدام صاحب الفخامة والزعامة. وفي ثنائية أخرى متصادمة نجد إخواننا في (شمال الوطن) يرفعون شعار هجومي وهو: (الوحدة أو الموت) والموت هنا لإخوانهم في (جنوب الوطن) وليس الموت بمعنى التضحية من أجل الوحدة كما يفهم من زاوية نظر أخرى، يقابل شعار الموت الهجومي (الوحدوي) شعار موت جنوبي دفاعي تحرري لكن في سياق مختلف ونلاحظ هذا عندما يقولون: "إما استعدنا الكرامة أو موت وسط الميادين" وهو خلاصة أغنية ثورية مشهورة عبّرت بصدق عن مشاعر أهل الجنوب بما حلَّ بهم من ظلم وقهر الرجال من إخوانهم في (شمال الوطن) وشتان بين أبعاد المعنيين.

بقي أن نقول إن اليمن بمجالها السياسي الراهن (مارس٢٠٢١م) ما تزال تمضي في قصة حرب تبدو مستمرة، وما تزال مشاكل أهلها معقدة وأكبر من تجليات النصوص ومحاولات دراستها وأخذ العبرة منها، وما يزال أهلها يتدافعون بشعارات متجددة وبعضها عابر للمراحل لكنها بهرولة غير منضبطة قريبة من ثقافة الموت التي يبحثون في أحشائه عن الحياة السعيدة لكن هيهات هيهات.

* * *

الخروج من سبيل

في بيتنا مناضل

كم هي لفظة النضال قوية ومشرقة، وكم هو وصف المناضل سامق الشرف والعزة، فهل مرحلة النضال في حياة الشعوب المتطلعة نحو الحرية والازدهار لها بدايات ولها نهايات؟ ومن يستحق شرف اللقب الدائم (مناضل)؟ تساؤلات إذا مضينا معها ربما (ستفجِّر) عشرات التساؤلات الأخرى الفرعية، لكن ما دفعني لهذه التساؤلات في هذه الإشارة تلك التشوهات للفظة النضال واشتقاقاتها ولاسيَّما عندما تحولت إلى (حق تاريخي) و(رصيد نضالي) تستر تحت ظلاله (المناضل) من أجل المناصب، والجاه، والثروة على حساب الوطن، ثم بعد أن يموت - إن مات - يوصف بالمناضل الذي قضى نحبه في خدمة الوطن.

وفي كل المجتمعات (المناضلة) كما يوجد أصحاب الأرصدة الربوية، هناك أصحاب الرصيد المشرف من هؤلاء (المناضل) أحمد مبارك بلعفير، عضو اللجنة الشعبية للجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل، الذي يرتبط اسمه على الصعيد العام بالجيل الأول لشباب الجبهة القومية في حضرموت، وعلى الصعيد الشخصي الأسري هو (خالي)؛ فقد ولدت وترعرعت في البيت الذي ولد وترعرع فيه بحي برع السدة بالمكلا.

لم أجلس مع خالي أحمد جلسة وجه لوجه إلا في أثناء مرحلة خدمتي العسكرية الإجبارية في عدن، فكانت شقته في مدينة التواهي وجهتي الأساسية خاصة في العطل الأسبوعية أو عندما أحصل على إجازة فتكون الشقة في وضع الترانزيت في رحلة باص عدن المكلا. وعلى ما في خالي من خصال نبيلة نلاحظها في تواضعه وبساطته وبشاشته فقد كنت مقيدًا نفسي بسياج مبالغ فيه من الحياء، ربما كان الأمر يتعلق بشخصيتي

أو ربما بما رسمته له في مخيلتي من مكانة عالية مدعومة بسيرة وطنية مشرفة، تتردد شذرات منها في بيتنا، لكن في بداية التسعينيات كنت طالبًا في السنة التمهيدية لمرحلة الماجستير في كلية الآداب جامعة عدن، فكان اللقاء بيننا لقاء رجل برجل مع الاحتفاظ بمسافة صادقة من الوقار. كنا نتحدث في أمور كثيرة إلا مرحلته (النضالية) فلم أستفزُّه بالحديث، ولم يشجعني في الخوض فيه. ومن منظور المتخصص في التاريخ إن تأسفت على شيء فإنني آسف على عدم اقتناصي لتلك اللحظات في استنطاقه وسماع شهادته على عصره.

أما قصة خالي مع (النضال) فهي قصة جيله الناصري، الذي تطلع إلى الوحدة العربية فكانت بدايته عضوًا في حركة القوميين العرب، ثم قياديًا على مستوى محافظة حضرموت في الجبهة القومية التي تسلمت السلطة في الجنوب في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، وقبل ذلك كان له دورٌ مشهودٌ في سقوط سلطنتي حضرموت القعيطية والكثيرية، وإذا كنت لا أتذكر مرحلة خالي النضالية وما تلاها من سنوات لصغر سني وقتئذ فإن محطات من سيرته كانت تتردد في بيتنا، وسأكتفي هنا بومضتين تكفيان بأن تدخله بوابة المناضلين الشرفاء من أوسع الأبواب

يروى مما يروى أنه بعد سقوط السلطنة القعيطية تمت القسمة بين كبار (المناضلين) لما قل وزنه وغلا ثمنه من أملاك السلاطين، ويقال إن قسم خالي احتفظ به، وعندما وصل إلى علمه بهذه القسمة رفض تسلمها، وكان يقول: "نحن ناضلنا لتحرير بلادنا من الاستعمار وليس للحصول على المكاسب". ربما يكون هناك مبالغة في الرواية ربما، وشخصيًا لم أستوثق من خالي مع وجود فرص ومناسبات كثيرة نكون في مجلس خالٍ إلا مني ومن خالي، وكيفما كان القول فإن رسالة هذه القصة ودلالاتها تأصلت في وجدان البيت وأهله ومثلت قيمةً خلقيةً، ودرسًا عابرًا للعصور يتنزل علينا بالفخر والعزة والإباء.

لكن نضال خالي ضد المكاسب غير المشروعة تجاوز الموقف النزيه من تلك القسمة الضيزى، وهذه الرواية الثانية وفي بداية حكم جمهورية اليمن الديمقراطية بدأت الثورة تأكل أولادها، وبدأت مشاهد لتجاوزات ثورية عنيفة خارجة عن القانون ضد (الثورة المضادة)، في خضم هذه الأجواء المبكرة البعيدة عن حلم الثوار الشباب الصادقين في مجتمع العدالة والحرية قرر المناضل أحمد بلعفير الاعتزال تمامًا عن العمل السياسي، واكتفى بوظيفة في وزارة المالية براتب بشهادته الجامعية وليس بحسب رصيده النضالي، وظل في الوظيفة إلى أن طلع على المعاش، وفي تلك المرحلة آثر العيش في شقة متوسطة الحال كحال الحياة المتوسطة المستورة التي ارتضاها بقناعة لنفسه، وكان أقرب المقربين إليه (المناضل) عبدالله بن زقر (رحمه الله) (والمناضلَيْنِ) حيدر أبو بكر العطاس، وعلي سالم البيض (حفظهما الله)، والأخيران استمرَّا في لعبة النضال والسلطة ولا يزالان، وقد احتفظ خالي بمسافة الصداقة لكنه لم يستغلها لأغراض دنيوية، ذات يوم وصل إلى أسماعنا ترديد الرئيس علي سالم البيض الثناء على صديقه أحمد بلعفير وأنه بما معناه خرج من كمين السلطة عفيف اليد بريء الذنب. وواقع الحال مثل لنا الخال أحمد حالة خاصة غيرت معنى النضال التقليدي إلى أعماق النضال ضد النفس الأمارة بالسوء.

خالي الآن (حفظه الله) على فراش المرض في عالم من الطهارة، ينتظر ساعة الرحيل – لطف ربي به –، وكما يسر له الله فرصة النضال والخروج من إغراءات الدنيا الفانية نظن والظن بالله خير أنه سييسر له لحظة الدخول في الحياة الآخرة التي هي خير من الدنيا وأبقى، وعلى هذا الظن الحسن بالله يخيّل لي أن الجنة وقد لاحت لحظة الرحيل تستعد بفرح لاستقبال مناضلٍ متعفِّفٍ جاهد مع نفسه الجهاد الأكبر وانتصر، فرحمة الله عليك يا خالي العزيز حيًّا، ورحمة الله عليك عندما تصير في عليين مع الصديقين والشهداء.

أيام الخير

يصف العراقيون عهد ما قبل الحصار الدولي على بلادهم عام (١٩٩٠م) بأيام الخير، ويقصدون بها زمن الحياة المعيشية الرغدة، وعصر مجد العملة العراقية وقوتها، والرواتب المريحة، وإذا ردد العراقي جملة (أيام الخير) فهو غالبًا يعبّر عن حال التحسُّر على ما وصلت إليها حال بلادهم من ظروف صعبة بالكاد تصل بهم المداخيل لشراء الحاجات الضرورية. إنها آهات مُرَّة دفينة أكثر منها كلمات حنين أو ذكريات.

والتحسُّرُ على المراحل الماضية بدوافعَ اقتصاديةٍ أو سياسيةٍ ظاهرةٌ عربيةٌ بامتياز (فبعض) الليبيين بعد ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩م يذكرون الملك السنوسي بالخير، (والبعض) في جنوب اليمن يذكرون أيام الاستعمار البريطاني (بالخير)، والحضارمة يذكرون عهد السلاطين بالخير، وبعض المصريين ينظرون إلى التجربة الديمقراطية في العهد الملكي على قصورها بأنها حالة أفضل مما بعدها، وهكذا الأمور متشابهة في سوريا والسودان وتونس والجزائر، بل حتى في الدول ذات الحكم الوراثي تجد فيها المقارنات، وتتباين المواقف العاطفية والسياسية مع أو ضد هذا الحاكم أو ذاك عند تحديد مكان الخيرية بينهم.

وإذا كان العراقيون يذكرون ويتذكّرون أيامهم السعيدة المنصرمة فحسبهم حظًّا أنَّ لهم ماضيًا أصيلاً بالخير، وبهذا سيدخلون في دائرة الغبطة وليس الحسد من إخوانهم في حضرموت الذين ما تزال أيام الخير عندهم بعيدة المنال أو على الأقل لا تبدو ملامحها في الأفق القريب، لهذا تجدهم إذا ذكروا الماضي بذكر (حسن) ولا سيما في مرحلة ما بعد السلاطين فإنهم يذكرونه في الأغلب بميزان الأقل سوءًا أو الأخف معاناةً

أو باستراتيجية أهون الشرَّينِ. وبهذا يتأجَّل عندهم حلم التغيير، وتتجمَّد لحظة الانفراج، وتطول مدة الانتظار، ويزيد عدد المهاجرين.

في أواخر عهد السلاطين انتعشت الآمال بانفراجة لهذا الشعب الصبور، وكان والدي (رحمه الله) من شهود تلك المرحلة عندما كان سائقًا مع قافلة سيارات الشحن التي نقلت معدات شركة بان أمريكان للتنقيب عن البترول من ميناء المكلا إلى منطقة ثمود، ويروي الوالد مما يروي حكايات الاستبشار العظيم بين رفقاء الطريق حتى إن واحدًا منهم انبرى قائلا: "إذا لم نشهد خير البترول في أيامنا فإنه بالتأكيد المريح سيصل إلى أبنائنا". وفي تلك اللحظات رددت حضرموت عن بكرة أبيها: "يا حضرموت افرحي الفقر ولّى وراح".

في غضون ذلك خرج الاستعمار من الجنوب العربي وجاء الحكم الثوري وصارت حضرموت محافظة فيه، وبهذا اتسعت المسافة بين حضرموت وخيراتها الواعدة، وحتى عندما ظهرت بوادر ظهور البترول في محافظة شبوة في منتصف ثمانينيات القرن الماضي تحدث الحاكم الأول للجنوب (الاشتراكي) على شاشة التلفزيونات بأن لا يحلم الناس بحياة الرفاهية التي عليها أهل الخليج في عصر البترول، وبهذا تحطَّم الحلم بالخير وتراجع الأمل للوصول إليه.

خلال العقدين من حكم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الغنية بالثروات، توالت جولات الصراع (الجنونية) بين حكام الجنوب، وظل الوضع على ما هو عليه إلى أن دخل الجنوب المقسوم على نفسه في وحدة مع الجمهورية العربية اليمنية، ومنذ الأيام الأولى للوحدة (حُرِمت) الجمهورية الوليدة من مساعدات دول الخليج، وخلال السنوات الأربع بعد الوحدة ظهرت بوادر النزاع والصراع بين الطرفين، وفي جولة فاصلة من المعارك سقط الجنوب بكل خيراته في أحضان الشمال وصار: "رزق المجانين للمحاريم".

وفي خضم شعور أهل الجنوب بوطأة الحكم بعد عام ١٩٩٥م أطلق الأهالي على مرحلة جمهورية اليمن الديمقراطية (أيام الحزب) فكما كان الناس منقسمين في المواقف في مدة حكم الحزب، اختلفوا بعد غروب شمسه، لكن (أيام الحزب) كثيراً ما تكون حاضرةً عند المقارنة بين حال سيئة كانوا فيها وبين حال يرونها أسواء منها صاروا إليها. وأيًّا كانتِ المقارناتُ فإن الحنين لأيام الحزب وبعض (محاسنه) هي تعبير عن متوالية البكاء على الأطلال لخيبات الشعوب التي غاب عنها الحكم الرشيد. "وربَّ يومٍ بكيتَ منهُ فلما صِرْتَ في غيرِهِ بكيتَ عليه".

وهناك مقاربة لهذه الوضعية عبَّر عنها حكيم غيل باوزير (سالمين الحضرمي) بأسلوب ذكي لا يخلو من الطرافة، وذلك بعد هزيمة الجنوب عام ١٩٩٤م عندما سأله محافظ محافظة حضرموت صالح عباد الخولاني (من شمال الوطن): لِمَ لا تحبوننا؟ فردَّ عليه بحسب الرواية المتداولة بين الناس: "كنا في حضرموت لا نريد حكم السلاطين ونريد الحكم الجمهوري، وعندما جاء هذا الحكم الجمهوري أحببنا عهد السلاطين وكرهنا (أيام الحزب)، ولما جاءت الوحدة أحببنا أيام الحزب وتمنينا عودته، وأنتم أول ما تغادرون ثق كل الثقة بأننا سوف نحبّكم ونكره الحكم الجديد".

حضرموت الآن (أبريل ٢٠٢١م) تتحصل تقريبا على ٢٠% من خيراتها النفطية لكن هذا المكسب رغم أنه لا يتناسب مع ما تستحقه وما تحتاجه ليعود الحلم في الخير إليها فإنه جاء في وضع استثنائي ومتحرك يؤشر في المنظور القريب لجولة كبيرة من الصراع، لا نقول ذلك رجما بالغيب إنما هي مشاهد مكررة لا تبعث على التفاؤل، ربما تختلف الشخوص لكن النصَّ واحد، والمعادلة ذات المعادلة، والناس فيها سواء، فطالما هناك مجانين فشلوا في إدارة أنفسهم وخيراتهم هناك محاريم في انتظار أرزاقهم وستأتيهم طوعًا أو كرهًا.

يوم حزين ويوم (رضائي) سعيد

ذات مساء وعلى غير العادة طرق باب بيتنا خالي بصحبة خالته، كانا مُثقلَينِ بخبرٍ حزينٍ، عندما شاهدتْ أمي (رحمها الله) هذا الوجومَ أدركتْ أنَّ هناك أمرًا جللًا لهذا لم تساعد ضيوف الليل على توصيل الخبر بالأسلوب التدريجي المعتاد فنزل الخبر كالصاعقة (أخي صالح مات) فانهارت أمي وعلاء صراخها، وغير بعيد من هذا المشهد كان حال والدي (رحمه الله) حال الوالدة، فرغم ما يبدو عليه من القوة والصلابة فإذا الدموع تتفجَّرُ من عينيه ووصل بها إلى أعلى مراتبه الإنسانية. منذ تلك الليلة الليلاء التي كنتُ شاهدًا على كل تفاصيلها العميقة بالحزن، والمزلزلة للأبدان تغيَّر بي الحال كل الحال.

كان ترتيبي الابن الخامس من حيث تسلسل هرم العائلة المكونة من ستة ذكور تليهم خمس بنات. بوفاة أخي صالح (رحمه الله) الذي يكبرني بسنة صار ترتيبي الرابع، كان أخي الأكبر هلال - في تلك الليلة الحزينة - طالبًا في كلية الاقتصاد جامعة عدن، وأخي أحمد مدرسًا في قرية (غرير) بمحافظة شبوة، وأخي خالد مجنَّدًا إجباريًا في جزيرة ميّون (سلاح المدرَّعات)، وكنتُ مع أخي عبدالحكيم الذي يصغرني بسنة طالبَينِ في الصف الثاني الثانوي لهذا وضعتني الأقدار فجأةً في موضع كبير العائلة، والمدبّر لأمورها قبل أن يتماسك أبي وتعود إليه الولاية، وقبل أن يتقاطر إخوتي الكبار إلى مدينة المكلا ويلتئم شمل العائلة المكلومة.

وتدفقت السنون وغاصت العائلة في تفاصيل الحياة المعتادة في بيوت (الطبقة الوسطى) التي لا تخلو من قصة الفرح والألم والطموح والعثرات، وكانت العائلة قد

سلمت بقضاء الله وقدره فالأمانة عادت لربها لكنَّها تركت في القلوب الراضية غصَّة وأيَّما غصَّة لا سيما عندما ينهمر حديث الذكريات عن (تاريخ) العائلة ثم تستمر الدنيا في مجراها ومرساها، وتمضي كما قدَّر لها ربُها وسواها.

في السادس عشر من شهر أكتوبر ٢٠٠٣م كنتُ على موعد في يوم سعيد في حياتي الدراسية العليا، ففيه تمت مناقشة أطروحتي للدكتوراه في كلية التربية ابن رشد جامعة بغداد، في تلك الأثناء كانت بغداد تحت الاحتلال الأمريكي وكنتُ ساكنًا مع صديقي (الدكتور) صبري عوض التريمي في بيت يقع بالقرب من ساحة بيروت بشارع فلسطين، في هذا البيت العراقي الأصيل كانت الحاجية (كواكب الحديثي) أيقونته وقلبه النابض بالبشاشة. في صباحية يوم المناقشة وبتكليف شديد المحبة منها أمرت ابنها (أحمد العبيدي) بأن يكون مرافقًا بسيارته للموكب المتوجِّه لقاعة المناقشة بكلية التربية ابن رشد رغم أن سيارة الصديق (الدكتور) خالد يسلم بلخشر جاهزة للتحرُّك وتتسع للجميع، المهم تحرَّك الموكب مخترقًا شوارع بغداد المحتلة، وبعد المناقشة التي تكلَّلت بالنجاح كانت عائلة العم منصور العبيدي في غاية السعادة، فقد عبرت العلاقة بيننا إلى أبعد من مسألة السكن والإيجار. وفي مساء ذلك اليوم كنت على موعد في بيت هذه العائلة الكريمة لاحتفالية مصغَّرة لكنها ذات رمزية باذخة، وفي تلك الليلة المنورة بالفرح ذكّرتني سيدة البيت بدعائها لي في حجتها الأخيرة لبيت الله الحرام وهي أمام الكعبة المشرفة مع الدعاء ذاته لأبنائها سواء بسواء فحمدنا الله على الإجابة وشكرناه.

وفي سياق هذا الفرح المتصل أو بالأحرى واحديته كانت مدينة المكلا تنتظر، وكانت أمي تجهّز بسريّةٍ تامَّةٍ لساعة الوصول ولحظة اللقاء، وفي أجواء رمضانية أكملت معاملاتي كلها في بغداد، وصار بيني وبين مدينتي المكلا مسافة الطريق التي تبدأ من

بغداد مرورًا بمدينة عمَّان ومنها إلى مطار الريَّان، ومع أنه مستحب الإفطار في أثناء السفر في شهر رمضان الكريم لكنني آثرتُ الصومَ في رحلة جميلة طوت فيها الطائرة المسافات البعيدة، واختصرت الزمن.

في عصرية رمضانية وبعد أن تمَّ إعلان وصولي بأبواق سيارات المستقبلين صعدت درج بيتنا صعود الفاتحين، وأول ما لمحتني أمي رجَّت المكان في نهار رمضان بالزغاريد، وأصل الحكاية أنها (رحمها الله) نذرت في سرِّها مما نذرت إليه عند عودتي سالمًا غانمًا أن تطلق هذه الزغاريد حمدًا لله وشكرًا له. عندما احتضنت والدتي وتكحلت بدموع فرحتها تذكرت ذلك اليوم البعيد الحزين، ورَجَوْتُ الله في أعماقي أن أكونَ مصدرًا متجدِّدًا لهذه السعادة الغامرة، وقد تشابهت بيننا الأولويات في المشاعر وتقدير الأمور حينًا واختلفت حينًا آخرَ؛ فعند أمي سلامة الوصول من العراق الجريح تتقدم عندها على فرحة الإنجاز العلمي، في حين كانت عندي فرحتها تتقدم عليهما معًا وكله فرح، وكما كان وجع قلب أمي على فراق أخي صالح يتقدم عندي على وجع قلبي على فراقه وكله وجع، فإنه برحيلها تحررت من الشعور بوجع قلبها، لكنني وقعت أسير وجع رحيلها وهو أدهى وأمر، وهكذا تمضي الحياة بحلوها ومرّها وبدورتها المحكومة بإرادة الله وتقديره، ولا رَادّ لحكمه، فكما بكت المكلا ذات يوم من أيام الله زغردت في غيره بعد احتفال تمهيدي في بغداد في يوم مشابه من أيام الله.

"وتلك الأيام نداولها بين الناس"

* * *

ثقافة اللوم

يثير هذا العنوان إشكالات كثيرة من قبيل هل يصل اللوم - بوصفه ردة فعل رافضة أو غاضبة أو معترضة تجاه تصرفات معينة - إلى مستوى الظاهرة الاجتماعية بحيث يتحمل توصيف لفظة الثقافة؟ ثم ماهي المعايير الضابطة لقياسه؟ وهل اللوم بمعناه المرادف أو المقارب لـ (العذل - التوبيخ - التثريب - الانتقاد) ممارسة داعمة للسلوك القويم أو عوامل هدم للشخصية أو اهتزازها؟

وبداية نقصد بثقافة اللوم أنساق السلوك المتعلق بالعلاقات البينية والمجتمعية التي تتمظهر في شكل تعبير جسدي أو بالمقاطعة والهجر، أو بجدال ضدي بصوت مرتفع أو حاد يخرج عن الانضباط ويسود الجدل البيزنطي، وتتراجع في إثره لحظات التركيز لمعرفة جذور المشكلات وكيفية حلها، بمعنى آخر ينشغل الناس بعضهم ببعض وليس بعضهم لأجل بعض.

نحن هنا لا نتكلم عن مجتمع مثالي ميكانيكي؛ فلكل إنسان بصمة شخصيته التي تعبّر عن دواخله، وتتحكم في تصرفاته، لكن عندما نرى شعوبًا أو مجتمعات تحترم القوانين المنظمة لشؤون حياتهم، وتنتهج الأسلوب المهذب في إدارة الاختلافات البينية بوعي جمعي، وليس بخوف من لوم حاكم وعقوبته. ومجتمعات أخرى فوضوية كثيرة التنازع بين أفرادها، يتقاذفون الاهتمامات والتبعات ولا يردعها إلا إجراءات صارمة. يبيّن لنا ذلك الفرق تفاوت درجة الوعي الاجتماعي المرتبط ارتباطًا عضويًا بسيادة القانون، والاستقرار الاقتصادي، وجودة التربية والتعليم، وغيرها.

ومربط الفرس في بناء الشخصية تبدأ من الأسرة ثم المدرسة، لكن الثقل الأكبر يقع على كاهل الأسر؛ فهي مَنْ تغرس في الطفل الثقة بالنفس، وفنَّ التعامل مع الآخرين، وثقافة اللوم ليس شرطًا أنْ تكون بالألفاظ والكلام، بل هناك وسائل متعدِّدة منها – كما سبقت الإشارة – الصمت، وتعابير الوجه وتقاطيبُه، أو حركة الأيدي، أو زمُّ الشفتين، وهي إشارات تصل بسرعة لمَنْ يعنيه الأمر، وهناك فواصل رقيقة بين ما يمكن وصفه باللوم الإيجابي واللوم الهدَّام، فالإيجابي يتميز بالليونة في توضيح الأخطاء، ويغرس مشاعر داخلية بنَّاءة، تظل محفوظة في الذاكرة.

أمَّا اللوم الهدَّام فعاقبته وخيمة، تتوارثه الأجيال كما تتوارث الجينات بما فيها من أمراض، لهذا أدركت بعض الدول الأوربية خطورة التربية العنيفة ضد الأطفال، وسنَّت القوانين التي تجيز بموجبها سحب الطفل المعنّف أو كثير البكاء من والديه، وتتكفل الدولة بتوفير بيئة صحية لتنشئته، ويشكِّل هذا الإجراء القانوني في بداية الأمر صدمة للاجئين من دول العالم الثالث، الذين - بحسب عاداتهم - يعدُّون أولادَهم ملكًا لهم، وأسْرَى عندهم، يعملون فيهم ما يحلو لهم.

وحتى نبتعد عن العموميات يمكن إيجاد بعض الأمثلة لثقافة اللوم بملامحها السلبية والإيجابية، منها ما جرى بين الرسول سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وخادمه الطفل (أنس بن مالك) عندما أرسله لحاجة، فتأخر عليها لاندماجه في اللعب مع الأطفال، وعندما شاهده الرسول قبض بقفاه وهو ضاحك، وقال: "يا أنس هل ذهبْتَ حيث أمرْتُك؟"، ولأن الرحمة في خلق النبي تسبق العذل، اختفى اللوم وتحوَّل إلى عتاب لطيف، عزَّز الشحنات الإيجابية لتجنُّبِ الأخطاء، والحدِّ من تكرارها.

أما الملمح السلبي لثقافة اللوم بصورتها الحادَّة فقد شاهدْتُه في نموذج زميل دراسة في المرحلة الابتدائية؛ إذْ كان منطويًا على نفسه، ويحسب ألف حساب للومة

اللائمين وسخرية الساخرين، من ذلك عندما يطلب المدرِّسُ منه الإجابة عن سؤال سهل جدًّا لتشجيعه يقوم ساكتًا، لكنه خارج المدرسة يقول إنه يعرف الجواب ويذكره، ولم أفهم أسباب سكوته إلا بعد حين من الدهر عندما عرفت حجم المشاكل الأسرية التي كان يعانيها؛ فشقيقه الكبير يوبِّخه سرًّا وعلانية، وأحيانًا إلى حدِّ الإهانة وكانت النتيجة – رغم أنه متوسط الذكاء كمعظم أقرانه – أنْ غادر المدرسة مبكرًا، وفي مشوار حياته لازمت شخصيته ثقوبٌ نفسية محاطة بفوبيا آراء الآخرين.

لهذا في المجتمعات التي تسود فيها هذه الثقافة يتطلب من أصحاب الهمم العالية مناعة نفسية، قادرة على صد الاعتداء باللوم، والهجوم بالنقد المغرض، وقريب من هذا المعنى تنسب عبارة مشهورة على لسان العالم المصري أحمد زويل، الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء وهي: " الغرب ليسوا أذكى مِنَّا، لكنهم يقفون ويدعمون الفاشل حتى ينجح، أمَّا نحن فنحارب الناجح حتى يفشل "، إنَّها عبارة لاذعة، لكنها صادقة بالنصيحة، ومكثفة باللوم الضمني على حال العرب الذين تطغى على تصرفات البعض منهم مشاعرُ الحسد والحقد، فيتوهَّمون في نجاح الآخرين كشفًا عن كسلهم، وتهديدًا لكبريائهم، وتجاوزًا لغرورهم الزائف، فهم في حرب مستمرة مع الأفكار الجديدة الطموحة، وتراهم يتجاهلون كل المساحات المضيئة، ويركزون على نقاط هامشية، يشبعونها لومًا، لكنهم لا يلومون إلا أنفسهم وهم لا يشعرون، لهذا لا توجد بيئات حاضنة لنوابغهم فتهاجر العقول إلى حيث تجد التشجيع والتقدير وفرص الإبداع والتميز.

ومن عناصر ثقافة اللوم البنَّاءة والضابطة للسلوك الجمعي في المجتمع الحضرمي ولاسيما البدوي نجدها إلى وقت قريب عندما كانوا على الفطرة، فكانت لفظة أو صيحة (يا لوماه) إذا وُجِّهَتْ للقبيلة أو للفرد منهم فهذا يعني: وصمة عار تقلِّل النظرة إليهم من القبائل الأخرى، لهذا نجد في اتفاقيات التحالف فيما بينهم، أو مع السلطات

الحاكمة تأتي في بنود الاتفاقيات مفرداتٌ، مثل: (الشؤم واللوم) بمعنى: مَنْ لم يلتزم ببنود الاتفاق يدخل في دائرة (الملامة) التي توازي في دلالاتها فضيحة العار، وبضغط هذه العقوبة الحسية تقبل القبائل التحكيم لتسوية الأمور، ولتعطي رسائل غير مباشرة تؤكِّد على استهجانها الأفعال التي جلبت لها اللوم من بعض أفرادها، فثقافة اللوم محكومة هنا بالأعراف القبلية، وهذا ما يجعل القبائل تحترم اتفاقيات الهدنة، والعرضة، أو الصلح مهما كانت مرارتها، فكانت الكلمة شرف القبيلة، وعنوان لصلابتها.

وأنبل أنواع اللوم هو الوازع الداخلي الاستباقي للإنسان، وهو الضمير اليقظ أو الحي، وهي مرحلة عليا تصل إليها الشعوب المتحضرة؛ إذْ يُدرِك فيها المواطن أن خراب المجتمعات يبدأ من ممارسات فردية خاطئة، لكنَّها قابلة للانتشار، أما الشعوب (اللوامة) فتصنع من خلفها، ومن أمامها أسوارًا، وعراقيل تحدُّ من تحركاتها، وتشتِّت اهتماماتها، وتبعدها عن جادَّة الطريق، ثم تلوم نفسها على خيباتها، في حين لا ينفعها لومها شيئًا، ولا لومة اللائمين.

* * *

فن الإدارة. النجاح، التميز

لا يجد المثقف (العربي) غضاضة عندما يكتب عن نواحٍ من سيرة أمه، سواء في حياتها أو بعد مماتها. لكنه يتردد كثيرًا عند الكتابة عن شريكة حياته لاسيما في حياتها. أما بعد مماتها فإن الوعي الجمعي العربي يقبل أو يتفهم الكتابة من باب الذكر الحسن (لمناقب المرحومة)، وقد تطرقت في مقالاتي المنشورة لجوانب من علاقاتي المجتمعية أو مشاهدتي لتجارب إنسانية لمن ارتبطت معهم بمواقف مباشرة، وغير مباشرة رأيت أنها تستحق الكتابة.

لكن عندما تراودني فكرة الكتابة عن ومضات من رسالة شريكة حياتي (حفظها الله) التربوية والتعليمية، خاصة مرحلة إدارتها لمدارس البنات في مدينة المكلا دائمًا أستبق الفكرة، وأغلق أمامها الأبواب أو أؤجلها؛ وذلك لعوامل عدَّة، أهمها معرفتي حرص (المديرة) الشديد على بقاء سرية ما تقوم به من أعمال صغيرها وكبيرها؛ حتى لا يضيع عليها أجر ما تحتسبه لوجه الله، وحتى لا تدخل في شبهة فعل الرياء المذموم. ثم إنها لا ترى في ما تعمله شيئًا كبيرًا، يستحق الإشارة والثناء، وهي محقة في ذلك، وهناك عامل مجتمعي خارجي ضاغط، فالعقلية الجمعية لا تستحسن الكتابة عن شريكات الحياة إلا بعد وصولهن لمرحلة (المرحومات) كما سبقت الإشارة، وفي أحسن الأحوال تَعُدُّ المجتمعات المحافظة هذا النوع من المقالات – إذا قبلته - بمنزلة بيان نعي استباقي بتخريجات مفتوحة الظنون، وهناك عامل ثالث شخصي وهو أنني سأكون طرفًا غير محايد أو مجروح الشهادة، ومع هذا وعندما عزمت على الكتابة، وحرصًا

على الموضوعية آثرت الإشارة إلى محطات معروفة، وشبه معروفة على صعيد البيئة المدرسية الخاصة، والإدارة التعليمية الرسمية. وغير ذلك ليس من حقي أن أقوله.

وحتى لا يلتبس الأمر على القارئ الكريم نذكّر بأن المقال معني بذكر محطات منتقاة، وجدتُها تستحق الإشارة في مشوار رسالة هذه (الأستاذ القديرة)، وليس في مشوار الحياة الشخصية الخاصة. وما دفعني لكتابة هذا المقال أمور كثيرة، منها اضطراب المعايير عند تحديد الرُّوَّاد والمتميّزين في المجتمع، فصار فقط من يلتزم بالدوام بنسبة ٨٠% شخصية متميزة، تستحق التكريم، مع أنه لا يتجاوز مهام وظيفته الذي يتسلَّم عليها راتبه، ولهذا غاب عن مجتمعنا النموذج الحقيقي التي يجب أن يشار إليه بالبنان.

ذات يوم طُلب مني التصويت لاختيار متميزات في المجتمع لاستحقاق جائزة مادية ومعنوية، وكانت من المرشحات زميلات قديرات في جامعة حضرموت من حملة شهادة الدكتوراه، وغيرهن، وبحسب السيرة الذاتية المرفقة مع استمارة الترشيح لاحظت كل المرشحات درسن على حساب الدولة، واشتغلن وفقًا لتخصصاتهن مقابل رواتبهن لا أكثر ولا أقل، ومن واقع الحال يجب أن تكون معايير التميّز والريادة للأدوار الاستثنائية والأعمال التطوعية والإنجازات الإبداعية لما هو خارج نطاق ثنائية الوظيفة والراتب.

وبعودة إلى (المديرة) فقد تم اختيارها مديرة لثانوية بلقيس للبنات بعد سنوات من ممارستها لمهنة التدريس داخل قاعات الدرس، وقد صدر القرار في الإجازة الصيفية للمدارس، ولأنها تنتمي لهذه المدرسة فهي على علم بكل تفاصيل مشكلاتها المتعلقة بالبنية التحتية، وعلى العموم كان الدعم الرسمي للمدارس محدودًا جدًا، ويعتمد في قسم كبير منه على رسوم الطلبة الرمزية الزهيدة، وعلى إيجارات المقاصف.

عندما تسلَّمت المديرة المدرسة كانت الميزانية تحت الصفر، ومع هذا كان أول قرار اتخذته هو (تكليفي) بجلب مهندس كهربائي لتمشيط المدرسة، ورفع كل متطلبات الصيانة، والتركيبات اللازمة للمكاتب، والفصول والممرات والحمامات. كانت مهمة الكهربائي هو فحص سلامة كل نقاط الكهرباء بتبديل الخارب وتمكين الصالح، بحيث تضيء جميع المصابيح (السراجات)، وأن تدور كل المرواح، وكذا تؤمن المفاتيح المكشوفة أو المهدّدة؛ وذلك لتحقيق عنصر الأمان في كل زوايا المدرسة. عندما وجدتُ كلفة الأعمال مرتفعة نصحتها بالتواصل مع إدارة التربية والتعليم، لكنها كانت تقول بأن عوائق الروتين الحكومي سيؤخر فعل ما تريد تحقيقه في الوقت المناسب، وأن الأوليَّة عندها في مدة إدارتها لسلامة الطالبات من أي مكروه، ولهذا تحملت جزءًا كبيرًا من العبء المالي، وفتحت المجال لبعض أهلها المقربين للدعم. كنت أتفهم هذه المبادرة النوعية، ولهذا وأنا اتابع عملية الصيانة بحماسة تجاوزت مرحلة مشاعر السعادة إلى مرحلة الافتخار بها.

ولم يأت اليوم الأول للدراسة إلا وقد أنجزت جميع الإصلاحات، لكن هناك أمور أخرى تستحق التغيير، منها ضبط الجوانب المالية، وذلك بتكليف معلمة من أعضاء المجلس المدرسي؛ لتكون أمينة على أموال المدرسة، وتكون حركة المال العام (الواردات والصرفيات) بعلم المجلس المدرسي، وبهذا تم مغادرة المحاسب، وكان الرجل الوحيد في المدرسة، والخطوة المتزامنة لهذا الإجراء هو ضبط واردات المقصف بعقد جديد، وبإشراف مباشر من إدارة التربية بالمديرية، يحدّد فيه مبلغ الإيجار، ويتحول لصالح المدرسة، وفي سياق متصل وحتى يتم الفصل بين العام والخاص أصرَّت في أول يوم دراسي على دفع المديرة، والمدرسات قيمة المشروبات، مع التأكيد (للمستأجر) بأن استمرار عقد تأجير المقصف مرتبط بمدى الالتزام بالشروط المتفق عليها.

هذه الإجراءات أسهمت في ثقة الأهالي، وحصلت المدرسة على مساعدات من الأسر الميسورة، كما تعزَّزت الثقة بالإدارة الجديدة من قبل إدارة التربية بالمديرية والمحافظة، ونالت عنايتهما الخاصة في توفير الأمور المتعلقة بالناحية التعليمية والبنية التحتية، ووصلت فرص متعددة للتطوير، منها إعادة طلاء مبنى المدرسة، فظهرت بحلة جديدة جميلة، وكان لنظافة المدرسة أهمية خاصة؛ إذ كانت عاملات النظافة يقبضن مبلغًا زهيدًا جدًا من ميزانيات المدارس (٦ آلاف ريال يمني) ينقطع هذه المبلغ في الإجازة السنوية، وعندما تحسنت وضعية المدرسة المالية زاد المبلغ المدفوع إلى ٨ثمانية آلاف ريال يمني، واستمر صرفه في الإجازة الصيفية والمعتاد في المدارس هو العكس.

وقبل أن تغادر المديرة مدرستها بعد أن كُلِّفت بإدارة مجمع الزهراء للبنات ذي البنية التحتية الجاهزة، سلّمتها وهي راضية عن نفسها بما قدمته، وبوفر مالي لصالح المدرسة، وفي محطتها الثانية رأت أن التحدي الكبير يكمن في كيفية إدارة هذا المجمع المزدحم بالطلبات الذي يتجاوز عدد الطالبات فيه ألف طالبة، وبطاقم تدريسي وصل إلى مائة وخمسين معلمة، وببرنامج دراسي لنوبتين صباحية ومسائية، ولهذا ركزت على قضية الضبط الإداري لفريقها الإداري والتعليمي، وكانت المهمة صعبة للغاية، لكنها بخبرتها تمكنت من ضبط البوصلة، وبإدارة مرنة وازنت بين تقدير ظروف المعلمات والحزم عند التجاوزات، وبهذا خلقت فريقًا متعاونًا ومتفاعلًا، وجعلت من نفسها النموذج الحي في الالتزام من حيث الحضور المبكر، والمغادرة بعد الاطمئنان على سلامة حركة المغادرة للطالبات.

لكن المقام لم يطل بها في هذا المجمع المدرسي الكبير؛ فقد اختيرت أول مديرة لمدرسة البنات النموذجية عند تأسيسها، كان عدد الطالبات لا يتجاوز مائة وعشرين طالبة،

وبنية تحتية صرف عليها بسخاء من قبل إدارة التربية بالمحافظة، ومن مؤسسة التنمية البشرية الشريكة في دعم هذه المدرسة، كما أن الطالبات يمثلن (النخبة) فهن أوائل مدارسهن. وفي يوم قلت لها: في ثانوية بلقيس واجهتِ مهمة إعادة بناء المدرسة، وفي مجمع الزهراء ركَّزتِ على قضية الإدارة السلسة، وفي هذه المدرسة النموذجية ما أسهل مهمتك! قالت: نعم من حيث المبنى والإدارة، لكن تركيزي على الطالبات أنفسهنَّ، وكيفية ضبط التنافس بينهن، بحيث لا تمثل فروق الدرجات اليسيرة عامل إحباط لحساسية البنات المفرطة، وحتى لا يفقدن ثقتهن في أنفسهن، ولتحقيق ذلك حرصت على غرس الإحساس بالعدالة من حيث إتاحة الحق للطالبة المتظلمة في المراجعة، ومعرفة سبب انخفاض علامتها عن غيرها، ثم إن التوجيهات للمعلمات واضحة، وهو تحفيز عنصر المنافسة الشريفة وليس المزاحمية، مع التأكيد عليهن بأن في المستقبل مكانًا للجميع (انتهى كلامها)، وعندما تخرج بعض الحالات عن السيطرة تتدخل المديرة وتتواصل مع الأهل، وأحيانًا يكون بيتنا مكانًا لبناء الثقة، وغالبًا ما تكون النهاية سعيدة، وتحصل المديرة على دعوات صادقة من أم عادت الابتسامة لفلذة كبدها.

أكتفي بهذه الومضات، لكن من الأهمية بمكان الإشارة بالتأكيد على أن هناك أسماء من الناجحين والناجحات والمتميزين والمتميزات والرواد والرائدات في مجتمعنا ممن يستحقون الإشارة، لكنهم فضَّلوا الابتعاد عن الأضواء لسبب أو لآخر، وأعتقد أنه بالمعايير المعروفة للتميز والريادة ربما لم تصل إليها المديرة: (إخلاص عمر محمد العطاس) لهذا أجد أقرب وصف لها بأنها (مديرة ناجحة).

وبقيت إشارة أخيرة، وهي حتى بعد أن عزمت على الكتابة ترددت في فكرة النشر، وأجَّلت البث فيها إلى ما بعد الفراغ من الكتابة، وفي أثناء الكتابة ظللت أشجع نفسي

بالاستمرار بالقول: إذا لم يُقدَّرْ لهذه الصفحات النشر فإنها ستحفظ ضمن أرشيف (تاريخ العائلة) مع أوراق ومذكرات خاصة غير قابلة للنشر. وكان مبعث توجساتي في النشر من فرضية أن المقال قد يفهم أو يفسر على غير الهدف النبيل الذي قصدته، وربما سيضيق صدري بما يقولون، إلى أن أتت لحظة قرَّرتُ فيها أن أترك الناس أحرارًا فيما يقولون، ويظنون، وأن أتمسك بيقيني بعلم الله الذي يعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسه إنه علام الغيوب، فرأيت في هذا اليقين برهانًا من ربي، وقلت لنفسي الآن حصحص الحق.

* * *

سيف التاريخ وذمته

تقترن لفظة التاريخ عادة عند المثقفين وأحيانا عند غيرهم بألفاظ متعددة كأن يقال في ذمة التاريخ، أبواب التاريخ، التاريخ لا يرحم، وحُكم التاريخ، وعند البعض الآخر يحدث الخلط بين لفظتي التاريخ والتأريخ وفي تعريفهما أشار قسطنطين زريق إلى لفظة التاريخ بالألف اللينة للدلالة على أحداث الماضي ووقائعه، والتأريخ (بالهمز) للدلالة على دراسة الماضي وتدوينه أي على علم التاريخ.

إن موضوع التاريخ هو تسجيل التجربة الإنسانية، ويحتل علم التاريخ في فروع المعرفة الإنسانية مكانا متقدما، وهناك من لا يعترف بالتاريخ كعلم لأنه لا يخضع للتجربة واستبعد ابن خلدون لفظة العلم عن التاريخ وذكر كلمة الفن بدلا عنها عندما قال: ".. فإن التاريخ فن من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال..... إذ هو لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول..... وفي باطنه نظر وتحقيق".

إن الإدراك الصحيح للتاريخ ينتهي إلى الحكم فيه، أي التمييز بين صحيحة وفاسدة، بين ماله وما عليه. وعلى هذا فإن الموقف الذي نتخذه من تاريخنا لا يكون صحيحاً كاملا باعثا على العمل المجدي لحاضرنا ومستقبلنا إذا لم يؤد بنا إلى الارتفاع فوقه والحكم في عناصره التي يجب أن نحرص عليها ونحييها ونستوحيها، وتلك التي يجب أن نفلت منها ونثور عليها ونتخطاها.

لهذا يتقمص المؤرخ المدقق كل عناصر المحكمة من الدفاع (والهجوم) وخلال هذه المرحلة يسعى ما استطاع السعي لجمع المعلومات كي يتسنى له رفع لائحة الاتهامات ثم يتداخل مع نفسه لينطق ما يراه حقاً وصواباً دون مواربة، ولعلها من هنا أتت عبارة

(التاريخ لا يرحم)، وبينما القاضي النزيه معني أكثر بتحقيق العدالة فإن المؤرخ القاضي معني أكثر بمعرفة الحقيقة والنطق بها دون أن يلتفت لمشاعر الغاضبين أو المسرورين، ودون أن تؤثر في مشاعره ذاتها وإذا كانت الحقيقة تخدم العدالة فإن العدالة تستوجب قول الحقيقة.

على أن بعض الناس قد يجد في العبارة السابقة (التاريخ لا يرحم) من القسوة بحيث لا تخدم المعنى العميق لها، وغاب عنهم أن أصل العبارة هو التذكير للناس المؤثرين في حاضرهم – سواء كان إيجاباً أو سلباً – والتنبيه لهم بأن ما هو سر اليوم في حياتهم لابد أن يكون مصيره إلى العلن في الغد وأن الإنسان يتبوأ مقعده في صفحات التاريخ من حيث اختياراته في حاضره. وللتاريخ سلطة في إدخال من يشاء طوعًا أو كرهًا في مجاله وآفاقه لكن من أبواب مختلفة المذاق والمعنى ومتعددة المقاسات.

ربما يقول قائل إن التاريخ أدخل من أوسع الأبواب من لا يستحق وأخرج من أضيق الأبواب من يستحق الدخول والرد على مثل هذا الأطروحات تكون بدعوة الناس إلى التمييز الذكي بين التاريخ وما هو محسوب عليه والتدقيق في تحديد أنواع (القضاة) لمعرفة الأصل من التقليد.

سيقول الناس الكثير وهكذا سيكتبون وقد ينجح المضللون مدة من الزمن ولكن بعد أن تضع الحقيقة أوزارها وتنطلق بأمان من ذمة التاريخ وفي ذمته، لابد لها أن تظهر كالنور. وفي قوانين التاريخ لا تسقط التهم بالتقادم، والمؤرخون في حالة استنفار دائم للنطق بالحقيقة عندما يحين أوانها لتتحول إلى عدل ورحمة للمظلومين وسيف من صدق على الظالمين. وعلى هذا فإن كل شعب حي مدعو في كل وقت إلى تقييم تاريخه واستخلاص تراثه، وعملية الاستخلاص والتقييم هي عملية مستمرة لا تتوقف ولا تنتهي مادام العقل يستمر في طلب الحقيقة ومادامت حقيقة الماضي تنكشف له بدرجات ومراحل متتابعة وبوجوه جديدة.

مَنْ أنتم؟

كان شتاءً عربيًا عاديًا مضت فيه الحياة السياسية برتابتها وجمودها، لم تكن الأجواء العامة تنذر بتغيرات في الأفق القريب إلى أن جاء يوم السابع عشر من ديسمبر ٢٠١٠م عندما أشعل الشاب (محمد بوعزيزي) النار على جسده في مدينة بوزيد التونسية فتغيرت الغيوم في السماء العربية، وتحول الشتاء إلى صيف ساخن اصطلح على تسميته (بالربيع العربي) ثم بسرعة متناهية اتسعت دائرة النيران، وصارت كتلة من لهب عابرة للمدن والدول اهتز على إثرها المشهد السياسي العربي مع اختلاف درجات الحرارة.

وقد اختلف الساسة والمفكرون في تصنيف هذا الربيع بين متحمس ومشكك؛ المتحمسون يرونها ثورات عربية شعبية حقيقية ضد الأنظمة الجمهورية الاستبدادية وأنها تعبير عن حالة الكبت التي تئن تحتها الشعوب وعن يأسها من التغيير السلمي في مؤسسات الحكم في زمن كانت عملية التوريث في كل من ليبيا واليمن ومصر قائمة بوتيرة شبه معلنة. أما المتشائمون فركزوا على نظرية المؤامرة الخارجية لتنفيذ الاستراتيجيات الغربية لسياسة الفوضى الخلاقة في الوطن، وتحويله إلى كيانات صغيرة مشغولة بصراعاته الداخلية بحيث يتمكن الدول الكبرى من إدارة الصراع والسيطرة عليه، والهيمنة على ثروات الشعوب، وأصحاب هذا الرأي يؤكدون وجهة نظرهم بالمآلات التي وصلت إليها الدول التي شهدت الثورات على حكامها من تفكك وانقسام وفوضى وخراب.

لقد تعثرت ثورات الربيع العربي في تحقيق أهدافها لعوامل كثيرة أهمها أنها اتسمت بتسارع أحداثها وفجاءة نتائجها، وربما سبقت سياقها التاريخي فقد كان سقف الشعوب

العربية في التغيير لا تتجاوز تحريك مواد في الدستور فوجدت نفسها فجأة أما استحقاق بناء دولة غير مستعدة لها على أنقاض دول عميقة قائمة فحكامها العابرون للعقود اهتموا بقبضتهم القوية المتسلطة على مقدرات بلادهم، ولم يسمحوا بمؤسسات حكم موازية تستعد للطوارئ، وتحافظ على تماسك بلادهم فأدى هذا مع أسباب أخرى إلى انحراف الثورات عن تحقيق أهدافها وشعاراتها، وكانت هذه الأوضاع فرصة مواتية لنشاطات الأجهزة الاستخباراتية العالمية لتنشيط تحركاتها بما يمكنهم من تحقيق استراتيجيتهم الخبيثة في المنطقة.

ومثلت الثورة الليبية حالة خاصة والرئيس الليبي معمر القذافي (رحمه الله) الوحيد من رؤساء بلدان الربيع الذي قتل بعد أن ودّع عهده مع الحكم والحياة بمفردات خاصة، ومشاهد درامية ربما اختلفت مع مفردات زملائه من الرؤساء المخلوعين لكنهم توحدوا في جوهر صدمة النص، لهذا ركزنا إشاراتنا الخاطفة على الثورة الليبية التي انطلقت في ١٧ فبراير بعد أن وصلت رياح ثورات الربيع العربي إليها فخرج الشعب الليبي يطالب بحريته وحقوقه فتساءل العقيد القذافي مستغرباً، ومستحقراً: من أنتم؟ في العادة ينظر الناس لمفردات القذافي الخاصة بوصفها ضربًا من ضروب الطرافة السياسية أو الجنون، وقلة قليلة يعدونها من الحكمة أو من طرفها، ومع اختلاف الناس مع العقيد القذافي حيًا وميتًا فإننا نعتقد أن تساؤله الشهير (من أنتم؟) كان في محله، وصادر عن رجل بكامل قواه العقلية.

فالذين خرجوا ضده هم غير أولئك البشر الذين حاول ترويضهم خلال مدة حكمه الطويلة ليكونوا قطيعا يسكت عن إهدار كرامته، والعبث في ثروته، وسلب حريته، ويهلل لأفكاره العبقرية ويؤيد دوره العظيم في تحرير العالم، والتصفيق لمركزه الدولي

بوصفه حامي حمى إفريقيا وملك ملوكها، ويعزز ما ذهبنا إليه أن العقيد لم يسعفه الوقت ليفهم ما يحدث من ثورة في ملكوته بعكس غيره!، لهذا اهتدى وفكر وقدر ورأى أن الخارجين عليه قلة من المقملين والجرذان يستحقون القتل الأممي لتطهير ليبيا " شبر شبر- زنقة زنقة - دار، دار"

وإذا كان القذافي صادقا مع شعبه بحسب التساؤل فإن هناك من زملائه من الحكام العرب من جعل السؤال مواربًا أو صامتًا، ولكنهم استعجلوا إجابة شعوبهم وعملوا كما يعمل من قبيل: نكران الواقع، الاستهزاء بمطالب الشعب، التحريض على القتل، ملاحقة الناشطين، الاحتماء بعدو افتراضي، والاستعانة بالنخب المدجنة وأصحاب الأقلام الموالية.

وكان بالإمكان سحق الثورة الليبية لولا تدخل الدول الكبرى بما يشبه الاتفاق لطي صفحة القذافي من الخريطة والحياة معا، لكن ظلت مفرداته مرتبطة وخاصة تساؤله الشهير (من أنتم؟) القابل للتكرار طالما هناك حكام لا يعترفون بسنن التغيير السلمي، والحكم المؤسسي، ولن يختفي إلا عندما يعيد التواقون للحياة الكريمة للمتسلطين المستبدين التساؤل ذات التساؤل.

* * *

"ذبحوا عيال الجامحة.. ومحد بغى المقسوم"

يا محضار.. يقولون الناس عنك ما يقولونه، ولكنني سأتركهم وما يقولونه، لن أغوص معهم إذا غاصوا بحثاً عن دلالات كلماتك، ودرر همساتك، ولن أذوب إذا ذابوا مع سحر ألحانك، لن أحاول سبر غور أشعارك، والولوج إلى عميق أسرارك، ولكن يا محضار أسمح لنا نبحث عن ذاتنا في سطور مذكرات قلبك، وفي رسوماتك الجميلة. يا محضار بعد اثنتي عشر سنة من رحيلك الجسدي نحن خجولون أمام كلماتك، لقد تهنا في (غبب) البحار، ولم نقايس ونحن في النفس، وتقلبت علينا الرياح على كمين عينه، ولم نحافظ لا على الخن ولا على السفينة.

يا محضار.. قبل بضع سنين من رحيلك الجسدي لاحظنا كما لاحظت تقلبات الزمان وضراوة طمع الإنسان (ومحد بغى المقسوم) ففي لحظة فارقة وبخطى سريعة دخلت حضرموت في محطات متنوعة، وفي إحدى هذه المحطات، ولما يقارب من ربع قرن من الزمان تآلفت حضرموت برضاها أو بغير ذلك مع نمط خاص من الحياة كانت فيه معظم أدوار البطولة مسنودة إلى الدولة هي التاجر الكبير، وكانت مع العامل، والفلاح "ومع الصياد إذا هز رأسه باتقاتل"، وحزبها الوحيد هو القائد والملهم، وبناء على دور البطولة المطلق الذي تبنته تلك الدولة وفرت الغذاء بأسعار في متناول الجميع، وضمنت علاج مجاني ورسخت تقاليد مدنية اختفت بموجبها ثقافة السكاكين، وركن الناس برضاهم، وغير رضاهم إلى هيبة الدولة، وصوت القانون.

وفي محطة لاحقة تبدلت المشاهد، وتداخلت الجغرافية، وتنوعت أدوار البطولة واضطربت مفاهيمها، وتعددت السيناريوهات وتقاطعت المقاطع، وأعيد سرد حكايات قديمة علها تسود وازدهرت تجارة السكاكين

وفي زمن اللا معنى كنت يا محضار المعنى وكنت معنا ولا تزال، وكنا نشهد محاولاتك في كبح جماح المفارقات الأليمة حتى يعود الصياد إلى بحره حيث الرزق الوفير، ومهنة الأجداد لأن الماء لعبته، وليس الطين، وراعي الأغنام على خير ما دام قائما على غنمه يرعاها، ولكن صار في الزمان العجيب كما أخبرتنا لا الراعي الطماع مرتاح، ولا الصياد مرتاح، ولا الفلاح مرتاح يا محضار ما نزال نسمع قولك:

" راعي الغنم في الشعب يبغى له سكن في المدينة
والحاذق الصياد يبغى له زراعه وطينه
زاد الطمع في الناس والحرّاث عاكس طبينه
محد بغى المقسوم
همّ قلبه بالطمع بيعيش بين الناس مهموم "

لقد رصدت بعبقرتيك أحوال الناس في تلك المرحلة الغريبة التي شهدها الوطن جراء فوضى السياسة، وانتهازية السياسيين، فاستبيحت البحار لغير أهلها، وتحركت الجبال، وتقطعت الأوصال، وتعاكست الأحوال، وازدهرت ثقافة الطمع "ومحد بغى المقسوم "، وما تزال صيحتك الحكيمة تردد صداها الجبال.

ولكن مهالك الأطماع، وهمومها، سيطرة على كثير من النفوس، واستبيح الجمال هنا وهناك، وغابت قيم التسامح، والكرم، والرضا، والصبر، رخصت حياة الناس، وتدخل اللامبالون في حاضرهم ليرمي المستقبل في بحر لجي ماله قرار وجيء بالسكاكين أفواجا أفواجا.

يا محضار.. تجرا من غير أهل الكتب والكتابة، على الكتب والكتابة، ونشروا ظلما الكتب وأدعوا أنهم من الكتاب، ولهم في مدينة العلم باب وباب، وتقدموا في صفوف غير صفوفهم، وإذا صورهم برّزت، وتساءلت الأوراق بأي ذنب أظلمت وأظلمت، كانوا في أماكنهم على خير ولكن "محد بغى المقسوم"

وتحرك في صروح علمية من لا ينتسب للعلم بنسب أو قرابة فإذا بهم يحاضرون وعلى المناصب ينافسون وظنوا أنهم من العلماء العارفين، كانوا في أماكنهم على خير لكن "محد بغى المقسوم" ويا محضار هجر بعض علماء الدين محاريبهم وصار همهم غير هم العلماء، خاضوا فيما لا ينفع الناس، واستسلموا لشر الوسواس الخناس، وكانوا في محاريبهم على خير ولكن "محد بغى المقسوم" وتمادى الطامعون صار فعلهم فخرا ورجولة، وبهتهم ذكاء وفحولة، لقد صدقت يا محضار" من هم نفسه بالطمع بيعيش بين الناس مهموم"، ولكن "محد بغى المقسوم".

يا محضار. هل تسمعني؟ إنني أسمعك.. يا محضار أين نحن؟ لقد تقطعت بالناس السبل، لم يعد النجار ذات النجار ولا الصياد ذات الصياد، ولا التاجر ذات التاجر، ولا المعلم ذات المعلم، من نحن يا محضار؟ لقد ارتفعت الأقلام، طويت الصحف، وتسللت الغيوم "ومحد بغى المقسوم"

يا محضار.. ها هي السنين تتسارع، وتتسارع معها قوافل السكاكين ها نحن نرفع أيادينا مع يديك حتى تكون الأقسام عينه كي يهدا الناس ويستريحون، يا محضار ما يزال المشهد ذات المشهد.... ها هم الناس وقد فقدوا ثقتهم بأهل السكاكين "كل منهم شل سكينه " فمنهم من أخذها يقطع ما شاء له أن يقطع من أرض الناس، ومنهم من أخذها ليقطع أجسام المرضى يبحث في أحشائهم عن مال ولؤلؤ ومرجان، ومنهم من

أخذ سكينه يقطع الطريق باحثًا عن صيد وطريد، ومنهم من يحمل سكينه ليدمر تلاحم الفريق لكي لا يلتقي صديق مع صديق، ومنهم من يقطع في الزمان كي نكون بلا عنوان ومنهم شل سكينة لكي تتلاشى الكلمات وتعود إن عادت غير بيضاء .

نعم يا محضار قلت "إن عيال الجامحة ذبحوا وأنهم لم يؤمنوا الذباح وكل منهم شل سكينه" بحثا عن لحمة سمينة، أنظر إنهم لم يعبأوا بتداخل السكاكين، وشروط القسمة وقانون الذبيح... يا محضار لا يزال عيال الجامحة، وأقاربهم يحملون سكاكينهم ليتغاورا عن أخرى سمينة بعيدا عن الذباح وقوانينه.

ولكننا يا محضار ما نزال معك ندعو الله أن يؤمن الناس الذباح، وتبور تجارة السكاكين كي يقعد الناس، ويستريحوا، ويكونوا في القسمة متساويين وقانعين ...

ولكن يا محضار هل تسمعنا؟ فنحن نسمعك، نسمعك يا محضار

- (نشر في كتاب (المحضار بأقلام محبيه) بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاته في ٢٠١٠م)

* * *

سعيد عوض باوزير

نور الكلام وحكمة الصمت

ارتبط اسم المفكر والمؤرخ سعيد باوزير بثلاثيته الشهيرة التي صحب قراءه في أولها إلى معالم من تاريخ الجزيرة العربية وفي الثانية جلس يقلب معهم صفحات من تاريخ حضرموت، وسلك مسلكا خاصا في الثالثة عندما اقترب بهم إلى عوالم من فكر حضرموت وثقافتها. وحقيقة الأمر فإن المفكر باوزير تجاوز في مشروعه التحديثي هذه المؤلفات الثلاثة الشهيرة، فقد كتب مئات المقالات الاجتماعية والتربوية والسياسية غاص خلالها في قاع المجتمع الحضرمي وتوغل في تفاصيله محاولا بعث روح جديدة فيه تواكب الحاضر وتستعد للمستقبل. سلاحه الوحيد الكلمة الصادقة، والنصيحة المخلصة والمواقف الثابتة، والآمال العريضة. كانت الصحافة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي الوعاء الملائم الذي سكب فيها تطلعاته الوطنية.

وما سطره في صحافة تلك المرحلة يعد مدرسة مميزة في الكتابة الصحفية من حيث حلاوة الأسلوب وسلامة الفكرة ومتانة اللغة ووضوح الرؤية. ارتبط في مقالاته بقضايا أمته العربية وتفاعل مع أحداث المد القومي في الحقبة الناصرية وحلم كما حلم الملايين من العرب بالوحدة العربية والعزة والكرامة لهذا كان دائماً في صف دعاة الحرية والتحديث. انتقد علاقة سلطنتي حضرموت بالاستعمار البريطاني ونادى بحق الجنوب في تقرير مصيره. وعندما نبحث عن أسباب نمو الوعي الوطني لدى فئات المجتمع في حضرموت سنجد لكلمات باوزير صدى لا يمكن إغفاله بل وسيصنف من رجال الثورة، ومن مفكريها.

وبعد الاستقلال الوطني ربما كان المتوقع لباوزير - وغيره من المتنورين - أن يحتل مكانا متقدما في الحكم الجديد (فرصيده النضالي) يغطي لجني المكاسب الشخصية، وعليه فقط الدوران مع دورة الثوار. ولكن كلمات باوزير لم تكن تبحث عن شيء من هذا أو ذاك، ثم إن تلاحق الدورات الطائشة جعلت باوزير ومن مثله يحدقون في مشاهد غريبة غير التي بشروا بها، ودعوا إليها، وكانت مفارقة دراماتيكية، فالنظام الذي سعوا للخلاص منه هو الذي سمح لهم بحرية الكلمة بتعدد مذاقها واختلاف ألوانها، في حين الجديد لم يقدر إلا كلمة واحدة، وبلون واحد. بل شرع من القيود ما يجعل الخروج عنها خروجا يستحق العقاب. ولما يزيد عن العشر سنوات من الحكم الجديد سكت قلم باوزير عن الكلام المباح، وكان من الخبرة والنضج ما يؤهله لمساعدة من يريد المساعدة ولكن.....

أما مفكرنا فقد صمت صمتاً اضطرارياً لكنه كلام الصمت، من جانبنا لم نسكت بل حاولنا البحث عن سر قوة الصمت وحكمته في وجدان باوزير، ولم نعرف هذا السر ونفهمه إلا بعد قراءة كلماته التي كتبها قبل رحلة الصمت بسنوات عندما قال:

" كم خسرت من أصدقاء، وكم أضعت من فرصة، وكم تجرعت من غصة، وكم تعرضت لألوان من الألم، وكم كابدت من مصاعب ومشقات، لقد تقبلت كل ذلك في عناد وإصرار وأنا قرير النفس مرتاح الضمير لأنني احتفظت بشيء غال وثمين يعزيني عن كل ما فقدت لقد احتفظت بالمبدأ"

وبقي علينا أن نسكت بعد هذه الكلمات الجامعة ونترحم على أستاذنا سعيد عوض باوزير فكلماته في حينه بددت عار السكوت، وكان في صمته كلام من نور....

* * *

مجدي .. تداعيات الحكاية

في بداية مايو ٢٠١٨م كنت في ما يشبه حالة النازح (في بلاده)، فالشقة التي كنت مستأجرها لأكثر من أربعة عشر عامًا غادرتها عندما طلب مالكها بكل حياء عودتها إليه حتى تستقر عائلته في الوطن أو بعضها في ظروف أفصحت (بلاد الناس) للمغتربين بأن ساعة الرحيل قد أزفت، لكنها أتاحت لهم فرصة تقبل كابوس فكرة الرحيل أو التدرج في امتصاص جرعتها لكل حسب مقدرته المادية وظروفه وخياراته، وبين النداء الخفي (أرضك يا غريب) المؤرق لهواجس أهلنا في الاغتراب وبين الأمل في التغيير في قوانين الإقامة وكلفتها في (بلاد الناس) ما يزال أكثر أهلنا المتوجسون يراهنون هناك على (لعل وعسى).

وبينما كنت منهمكًا في ذلك اليوم القائظ في متابعة العمال في تنزيل وتحميل من الشاحنة ما تبقى صالحًا من أثاث بيتي تحت الشقة الجديدة فإذا بصديق الطفولة (مجدي) يظهر فجأة ويتساءل بدهشة هل هذا بيتك الجديد؟ قلت له: هذه شقتي الجديدة.....

... لمجدي صفحة مشرقة في (تاريخ) حافتنا فقد برز في مجال التجارة طفلًا عندما كان الذراع الأيمن لوالده، لكن كان هذا على حساب وقت التلميذ مجدي فتعثر في دراسته، وكان داخل هذا التاجر الصغير زعيمًا عربيًا ناصريًا، فهو على جديته يطلب أحيانًا من زملائه التجمع بعد أن يعتلي (دكة) بيتهم المرتفعة ويقوم خطيبًا وتحته الجماهير الغفيرة، لكن مجدي وهو يبحث عن نفسة بين العلم والزعامة والتجارة

رسب في امتحان المرحلة الإعدادية، وعندما سمع النتيجة اتجه إلى ساحل البحر وهو يبكي معلنًا عن نيته في الانتحار، وكان علينا نحن (الجماهير العريضة) الإمساك به، والتخفيف من روعه. ولكن هذا ليس نهاية المطاف في حكاية مجدي ففي مرحلة مبكرة من حياته رغم أنه أكمل المرحلة الإعدادية بنجاح حسم أمره ووجد نفسه تاجرًا أكثر منه زعيمًا.

لأكثر من أربعة عقود تفرقت بنا السبل وصرنا على فترات متباعدة نرى بعض، وتحيلنا التحايا في كل مرة إلى مرحلة الطفولة الجميلة البريئة. نجح مجدي في نشاطه التجاري أيّما نجاح، وكان يعرف بحسب لقاءاتنا السريعة بأنني واصلت دراستي العليا، وربما بلغت به الظنون أن ذلك قد يفتح لي بحساب التجار مجالات في الحياة أرحب وأربح ... تداعت حكاية مجدي في داخلي في مرحلة الصمت ونحن معًا نتابع العمال ونراقبهم، ثم توادعنا بحرارة الأصدقاء، وحنينهم..

قارب العمال على الانتهاء وفيما تبقى من وقت العمل كنت أحدث نفسي هل استدعى مجدي مرحلة الانتحار عندما شعر أن مستقبله قد انهار؟ وهل للحكاية القديمة مكان في ذاكرته؟ في اعتقادنا أن عدد السنين المنصرمة، وقصة النجاح التجاري كفيلة بنسيانه تلك اللحظات البريئة، لكنني استقربت لعبة المقارنات والمآلات في نفسه، وأنه ربما بلغة الأرقام سيحسبها لصالحه - إذا حسبها -، وهكذا غاب مجدي ومعه أسرار الإجابات، وتوجسات الظنون، وخرج العمال من شقتي الجديدة.. وسقط جسمي المنهك في أقرب كرسي، وتلاشت الحكاية.. وتقبلت وضعي الجديد (في ديار الناس) بروح فخورة بذاتها، وبنفس راضية مطمئنة بما كتبه الله وقدره...

* * *

البطل في التاريخ
فكرة القوة - قوة الفكرة

يشترك سكان الكرة الأرضية من إنسها وحيواناتها – وهم أمم أمثالنا- في وجود القائد أو الحاكم أو القائد (البطل)؛ الذي ينظم حركة مجتمعاتها أو مجموعاتها بعملية واعية تطورية بالنسبة للإنسان، وغريزية عند الحيوانات، ولهذا عُرِّف التاريخ بأنه حركة تطور البشرية؛ لأن الإنسان فقط له حركة تطورية بينما مجتمعات الحيوانات تدير نفسها، وشؤون حياتها بدورة مكرورة عبر الزمان، و(القيادة) فيها غالبًا وفقًا لقانون القوة. أما المجتمعات البشرية فإنها عبر حركتها التاريخية الطويلة تأرجحت وتعقدت معايير اختيارها، أو تنصيبها لبطل باختلاف التطورات الحضارية، والتنوع في الجغرافيا، والمعتقدات، والتحديات، وإذا بحثنا عن هذه المعايير سنكون وجهًا لوجه أمام قصة التاريخ الطويلة، وتساؤلاته الشائكة التي تبحث عن ماهية الدولة، ومن يحكم؟ وكيف يحكم؟

وقد شغلت هذه التساؤلات وغيرها حيزًا كبيرًا من اهتمامات الفلاسفة، والمفكرين، والمؤرخين، وخاصة القضايا المتعلقة بكيفية حكم الاتحادات القبلية، والاثنية والشعوب باختلاف مذاهبها ومعتقداتها، وعبر مسافات التاريخ تأرجحت عملية التمكين السياسي بين مفهومي (فكرة القوة)، و(قوة الفكرة)، لكنهما لا يتحركان بمعزل عن بعضهما البعض، فتارة القوة تتستر تحت عباءة الفكرة، وتارة أخرى تتقدم الفكرة بسند القوة، ومعظم

حروب البشر وصراعاتهم لا تخرج كثيرًا عن هذه الثنائية، ونقصد (بفكرة القوة) أنساق السيطرة والتسلط التي يقوم بها عادة (أبطال) التاريخ، بالاعتماد على كتل عصبوية (قبلية)، أو اجتماعية (طبقات) مندفعة بمصالح مشتركة أما (قوة الفكرة)؛ فهي تقوم على الرضا الجمعي للحاكم – أو البطل التاريخي – تحت راية مقدسة، أو عقيدة، أو رؤية اقتصادية، أو بمبادئ وشعارات تحرّرية، أو حتى بتطلعات عنصرية وطائفية.

وأعطى أفلاطون في جمهوريته الفاضلة المتخيلة السلطة العليا للفلاسفة، وهو بهذا يقدم البطل من أهل العلم والحكمة (الفكرة) على غيرهم، لكن واقع الحال هو أن كراسي الحكم غالبًا لا يصل إليها إلا الأقوياء؛ الذين يتحركون في الأرض بمفهوم (الدنيا لمن غلب)، وليس بأحلام الفلاسفة الذين يحلّقون في السماء، وتغيب عنهم الكثير من التفاصيل، لكن حتى القادة الأقوياء تظل تحديات الاستمرار في الحكم ماثلة أمامهم، فطاعة المجموع أو الأغلبية، وإخضاعهم عملية معقدة، ومرتبطة - إلى جانب فكرة القوة - بالمصالح الاقتصادية، وتتخللها النزعات الفردية؛ لهذا ظهرت في المجتمعات القديمة مرجعيات زاوجت بين مقام الحكم، والمعتقد المقدس.

هذه المرجعية العليا نجدها على سبيل المثال في ممالك جنوب الجزيرة العربية، قبل الإسلام حيث ظهر الحاكم الذي حمل لقب (المكرب) أو المقرب إلى الآلهة، وهو منصب مزدوج، وساد ردحًا من الزمن إلى أن تعزّزت سلطة الملوك على حساب أصحاب المعابد، وقريب من ذلك نجد فكرة الحاكم المقدس في بلاد اليابان؛ حيث الإمبراطور المقدس ابن الشمس الذي يحمل رسالة اليابان إلى العالم؛ ليعم نورها تحت سيطرته؛ لهذا عندما انهزمت اليابان في الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م، قبلت كل شروط الحلفاء مقابل أن لا تمس رمزية الإمبراطور العميقة في التاريخ.

وظهر في أوربا نموذج الحاكم المقدس سواء في عهد الإمبراطورية الرومانية الوثنية المقدسة، أو في أوربا المسيحية عندما حكم الملوك فيها بنظرية التفويض الإلهي في الحكم، وقد تختلف المسميات والألقاب، والمعتقدات لكنها كلها تجعل من الحاكم الأول(البطل) بمنزلة فوق البشر وتحت الآلهة. وحتى الملك المصري الفرعوني الذي ادّعى الألوهية، وقال لقومه: أنا ربكم الأعلى، كان يدور حول فكرة الطاعة المقدسة؛ ليعزز فكرة القوة، وعلى أية حال فإن هذه النماذج الحاكمة المهيمنة بازدواجية الفكرة والقوة، أسهمت في الضبط المجتمعي، وخففت من حدة الصراعات من أجل الحكم، وجرت حسب سياقاتها التاريخية.

وبأثر ما عرف بعصر النهضة في أروبا الذي يعني مما يعني حرية التفكير وانطلاقاته، تطور الفكر السياسي فيها، وبدأت الدعوات لرفض نظرية الحق الإلهي في الحكم، وانحصر الصراع بين ممثلي الشعب، والملوك، - ومَنْ في صفهم - حول سؤال التاريخ المؤجل من يحكم؟ هل الملوك أو الشعب عبر ممثليه؟ وبعد مخاض طويل نجحت الفكرة الجديدة المدعومة بالقانون، على حساب الفكرة القديمة المحمية بالصولجان، واستقرت معظم الدول الأوربية على فكرة الملكية الدستورية، وهي فكرة سليمة دشنتها إنجلترا التي أبقت على رمزية الملك بوصفه فكرة تاريخية، وليس قوة حاكمة. بمعنى آخر عاد الملوك إلى مستوى البشر، وتركوا المواطنين يحكمون أنفسهم (ببطولة) الدساتير، والقوانين التي من صنعهم. لكن مشاريع أروبا الاستعمارية التي تمدّدت بالقوة خارج القارة، بهدف الهيمنة واستنزاف ثروات الشعوب، تغلغلت بأفكار، وشعارات مؤاربة (الإعمار – الصداقة - الحماية -التحديث – الديمقراطية، وغيرها).

بظهور الإسلام في وسط الجزيرة العربية، توحدت المرجعية العربية الحاكمة بالإسلام في شخص النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبعد وفاته واجه المسلمون . في سقيفة

بني ساعدة بالمدينة المنورة . سؤال التاريخ المتحرك (من يحكم وأين البطل؟) وتحت فكرة الإسلام تواجهت كتلتان تحت مسمَّيين متجاورين هما: (المهاجرون والأنصار) وللوصول للمنصب الأول طرح الأنصار (فكرة الجغرافيا) فهم أصحاب الأرض، وطرح المهاجرون أسبقيتهم في الإسلام (فكرة التاريخ)، ثم طرح الأنصار (فكرة) المشاركة في الحكم: (منا أمير ومنكم أمير) وطرح المهاجرون (فكرة) الطاعة العربية لرمزية قبيلة قريش، فمالت الكفة لصالح مبايعة أبي بكر الصديق ليُنَصَّبَ الخليفة (البطل)، بمعنى آخر تصارعت أفكار في سقيفة بني ساعدة، وتغلبت الفكرة الأكثر واقعية.

أما فكرة الإمامة بحسب مذاهب الشيعة فهي بعيدة عن أفكار سقيفة بني ساعدة، وقريبة من نظرية الحق الإلهي في الحكم؛ لأنها انطلقت بحسب تفسيرهم من إشارة النبي لعلي بن أبي طالب(رضي الله عنه) بالولاية فجعلوها حقًا مقدسًا حصريًا له، ولولديه؛ (الحسن والحسين) وأحفاده من بعدهما، لكن بحيثيات متنوعة من حيث التشدد، والمرونة، نجد قوة فكرة المرجعية عند مذاهب الشيعة أكثر تماسكًا من قوة الفكرة المفتوحة الاجتهادات عند مذاهب أهل السنة، والخلاف على مرجعية فكرة الحكم بين المذهبين، إذا اتسعت بفعل فاعل تهيأ ظروف مستدامة للصدام.

هذه الومضات والمقاربات المركزة والمتنوعة لنماذج مختارة من التاريخ، تشجعنا للعروج إلى حضرموت بإطلالة على تاريخها الوسيط، والحديث؛ لمعرفة كنه صراعاتها وتطوراتها السياسية الداخلية، وسنتجنب فكرة مشروعها الثقافي العابر لحدودها، فمنذ دخول الحضارمة الإسلام طواعية صاروا جزءًا من هذا الكيان الثقافي السياسي الجديد، وارتباطهم الديني المقدس بالإسلام جعلهم يتحركون مذهبيًّا وسياسيًّا في داخله، وليس من خارجه، لهذا تحالفوا مع أطراف الصراع والتنافس على الحكم،

وكانوا في دور المساند أو المتحالف الذي لا يستطيع أن يتصدر المشهد السياسي في ظل حكم الخلفاء الراشدين وما بعدهم، ثم تداخلوا مع الاجتهادات المذهبية وتقلبوا فيها، وبرزت محاولة ظهور (البطل) من الحضارمة عند تَمَذهُب عبد الله بن يحيى الكِندي (طالب الحق) بالمذهب الإباضي، وتزعمه للثورة على الأمويين من مدينة شبام سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م التي صارت -لمدة قصيرة- عاصمة سياسية لنصف الجزيرة العربية بقيادته. وتعد هذه الثورة المحاولة الوحيدة التي قاد فيها الحضارمة مشروعًا سياسيًّا خارج بلادهم المعروفة، وفي عهد الدولة العباسية تكوّنت دول في اليمن بمركزيات متنوعة، تنوعت مسمياتها مثل: الزِّيَادية، والنَّجَاحية ودولة بني يُعْفِر ودولة الأئمة الزيديين، والدولة الصُّلَيحية والأيوبية والرسولية والطاهرية، وكانت العلاقة بين حضرموت وهذه الدول أقرب ما تكون إلى علاقات الجباية، فغاب البطل الحضرمي.

وابتداءً من القرن السادس الهجري ظهرتْ دويلات المدن في حضرموت، مثل إمارة بني قحطان (آل راشد) في تريم، وإمارة آل إقبال في الشحر، وإمارة آل الدَّغّار في شبام، وتعد هذه المرحلة نقطة تحول في تاريخ حضرموت السياسي ففيها برز (البطل الوطني)؛ الذي تلقب (بالأمير أو السلطان)، واللافت في الأدبيات التاريخية الحضرمية إطلاق لقب الملك على الحاكم لبلدة صغيرة بمعنى (صاحب)، وهو معنى دلاليٌّ سياسي أدنى من لقب السلطان أو الأمير، وأعلى من لقب مقدم (زعيم) القبيلة.

في بداية التاريخ الحديث (القرن السادس عشر الميلادي)، ظهرت الدولة الوطنية الممتدة سلطتها على أرجاء واسعة من حضرموت، وعُدّ السلطان بدر الكثيري (بوطويرق) نموذج (البطل الوطني) الأشهر في بداية تاريخها الحديث، ثم برزت ثلاث قوى تتصارع على الحكم في حضرموت؛ هم آل كثير واليافعيون وآل العمودي، وكان للدولة القاسمية

اليمنية امتدادها غير المباشر في الحكم لما يقارب العقدين من الزمان، تميزت تلك المرحلة وما بعدها بهيمنة فكرة القوة في الصراع من أجل الحكم، بينما مضت قوة الفكرة على هامش الأحداث وأحيانًا تغذيها.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، كانت الكتلتان الأساسيتان المتنافستان على حكم حضرموت هما: اليافعية والكثيرية، أما مشيخة آل العمودي في دوعن، فكانت من الضعف والانقسام ما جعلها مجالًا لفكرة توسع هاتين الكتلتين، كانت (فكرة) الصراع عند اليافعيين تقوم على حق الوجود: (حياة أو موت) بينما تنطلق (الفكرة) عند الكثيريين من الوجود بالحق: (الأرض والتاريخ) تزامن هذا مع الاحتلال البريطاني لعدن، ثم سياستهم في تأمينها بالتدخل في شؤون ما جاورها عن طريق معاهدات صداقة، وحماية، واستشارة، وبهذا برزت مرجعية سياسية بريطانية في عدن(بطل أجنبي)، أسهم في تجميد دورات الصراع في المحميات، وبعد المرحلة الاستعمارية ١٩٦٧م اختفت من الناحية السياسية هاتان الكتلتان المحليتان، وأبطالهما، وصارت حضرموت محافظة في الجمهورية الجنوبية، ثم محافظة في الجمهورية اليمنية، وبهذا مضت خلال أكثر من نصف قرن – ولا تزال– (ديسمبر ٢٠٢١) بلا بطل وطني، وفاقدة لقوتها وفكرتها، وتتحرك بوضع سياسي هامشي على خارطة الدول الجمهورية.

* * *

مع خطى المهاجرين

تميم .. عزومة (وايرلس)

" لا يفرح بالجود إلا قليل الجود " سمعت هذه المقولة أول ما سمعتها على لسان أمي (رحمها الله)؛ فقد كانت ترددها في مواقف ومناسبات معينة، وفكرتها واضحة، وهي أن الإنسان الجواد أو الكريم إذا ما حصل على هدية ثمينة أو دُعي إلى وليمة عامرة سيعُدُّ ذلك دَينًا في رقبته وعليه أن يرده، أما قليل الجود فهو الأكثر سعادة أو أن سعادته تتوقف في زمان بريق الهدية، أو بعد زخم الوليمة، وبصدى هذه المقولة، وبدافع الفضول همست ذات يوم في أذن صديق حميم كان مشهورًا بالجود، وقد دارت عليه الأيام فقلت له: لماذا تعمد الابتعاد عن الولائم الكبيرة؟ فقال لي - بعد أن ضغط على يدي-: لأنني لا أستطيع أن أردها.

في معترك حياتنا اليومية نتبادل الهدايا باختلاف رمزيتها، ونرد العزومة بمثلها أو بأحسن منها، وكما نكون تارة في موضع المدين نكون في أخرى في موضع الدائن، ويستمر سجال الجود بين الأحباب، وتظل الميادين مستنفرة، مستعدة ومستبشرة، والبادئ أجمل وأكرم. أما البخيل فيفر كحمر من قسورة، لكن عندما يكون الغريم في بلاد بعيدة يبقى الدَين في عنق الكريم، وإن كان لا يبين، وتتجمد صيحات الثارات إلى حين.

في عام ٢٠١٦ م كنت ضمن وفد مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، ودار الوفاق للدراسات والنشر في رحلة علمية إلى جمهورية إندونيسيا، جُبنا خلالها عددًا من المدن الإندونيسية الكبرى. وفي هذه البلاد الجميلة التي توصف بجنة

الله على أرضه كانت ثقافة الطعام المحلي خاصة في الفنادق بعيدة عن ثقافة الطعام العربي ولاسيما الحضرمي، فالسمك بالسكر والفاصوليا بالسكر والرز - المتسيد على طاولة الوجبات الثلاث - بالسكر وهكذا، وتوجد أصناف لأكلات شعبية وفاخرة، لكنها لا تتناسب مع البرمجة الغذائية لأمعائنا.

في ظهيرة يوم ممطر وجميل في مدينة جاكرتا قرَّرتُ مع نفر من الزملاء مغادرة البوفيه المفتوح في فندق الخمسة النجوم بحثًا عن مطعم يتناسب مع النظام الغذائي المعتاد، وكان مقابل الفندق سوبر ما ركت كبير، قيل لنا: إن فيه مطاعم هندية وصينية وغربية وغيرها، فخرج الفريق بثيابهم التقليدية العربية بحثًا عن الطعام، فلمح المشهدَ شابٌ عربي، وبذكاء البدوي الذي يتوجس ريبة عند وصول الغرباء إلى مثاوي قبيلته سأل: الإخوة حضارمة؟ قلنا: نعم، وبعد أن عرف سبب غزوتنا تطوَّع فأوصلنا بسيارته إلى مطعم عربي حيث ضالَّتُنا.

وفي الطريق عرفنا اسم مضيفنا (تميم التميمي)، شاب أقرب إلى السمرة، بملامح عربية واضحة، وهو من مواليد إندونيسيا لأب حضرمي مهاجر (ولايتي)، تميم يتكلم اللغة العربية فلا تشعر بلكنة المولَّدين في نبرة صوته إلا في كلمات محددة، بعد أن عرف الفريق وفي أثناء ما كنا متجهين نحو المطعم اتصل تميم بوالده (العم عوض) ويبشره بأنه عثر على صيد سمين ثمين، وهم ضيوف من حضرموت، وذكر اسمي له فإذا العم عوض يطلب محادثتي، وفي البداية رحب بالفريق وخاطبني (ببني مُرَّة)، ثم بدأ الهجوم معاتبًا؛ لأننا قصرنا فلم نزره في بيته ومدينته البعيدة، ثم توالت الأسئلة عن طبيعة زيارتنا وعن أحوال حضرموت، وطلب وعدًا مني بزيارة الفريق بيته.. بدأ صوت العم عوض وكأنه قادم من بعيد لكن بشحنات عالية السخونة، متدفقة

الترحيب، ممزوجة بلوعة الاشتياق، وأنين الحنين. كان حوارًا مكثفًا يسابق اللهفات، حتى ظننت أن العم عوض لا يحادثني بل يحادث حضرموت العميقة في داخله حيث موطن صباه، ورائحة أهله وعبق قومه، وعلى ما يبدو من تباعد الأجساد شعرت أنه أقرب إليّ من وهم المسافات حيث الزمان بلا مكان في مكان بلا زمان، وهناك لاح طيف جدي (سليمان) - رحمه الله - المقبور في مدينة جاكرتا، لهذا تداخلت الأصوات والآهات والاشتياقات فصارت كتلة من محبة، وشلال من سلامات، مسوَّمة بإحداثيات ربانية، حُمِّلت أمانة إيصالها إلى كل ذرة من تراب حضرموت.

لكن العم عوض لم يكتف بالجولة الأولى من الحوار، فلعله وجد الكفة لغير صالحه، ففي اثناء انهماك تميم بتعزيز مائدة الوغى، وجلب المدد، طلبني العم عوض إلى المحادثة مرة أخرى، وبعد أن أيقن صعوبة تلبية دعوته سألني عما إذا هناك ثمَّة تقصير من تميم، فأكدت له أنه قد كفّى ووفّى، وفي الأخير طلب مني إيصال خبر العزومة؛ لتكون منه لا من ولده تميم، وعندما رددت الجوال لتميم سألني: ماذا قال الوالد؟ فأجبته: يا تميم أنت معك الجمالة لكن والدك شلك وشل الجمالة كلها، فأنت والفريق معزومون على حساب والدك.

أكمل تميم جمالته وأوصل الفريق إلى الفندق وعادت البطون بما طابت بأثقالها، والأهم أن النفوس تشبعت بحلاوة معاني الكرم الأصيل، وبعد مغادرتنا إندونيسيا، وفي خضم هذا المشهد بكل بهجته، تحضر عندي المقولة: (لا يفرح بالجود إلا قليل الجود)، لكن العم عوض وابنه وأحفاده بعيدون، والنوايا عندي في الرد لا تلين، وصار لا خيار أمامي إلا العُرف القديم حيث سيكون الطارف من بني تميم غريم.

* * *

مبروك.. دوعني في الشتات

متاع الرحلة قليل، لكنه مثقل بأوجاع الفراق، ومما يخفف من هواجس خطوات ما قبل الرحيل ومنغصاته اصطحاب الشيخ (مبروك) في هجرته عائلته المكونة من زوجته وأولاده، مشاعر العائلة تنوعت بين الفرح والحزن، وبين الوعي واللاوعي، وبين الاستسلام والطاعة الممزوجة بالرجاء والخوف من المجهول.

في ليلتهم الأخيرة أوى الجميع إلى فراش النوم، كان موعدهم الصبح والصبح لناظره قريب، لكن الأمر عند (عبد الرحمن) مختلف بعض الشيء فعيناه لم يزرهما النوم، كان طيفها مهيمنا على ساعات تلك الليلة الطويلة. فقد حرصت (فاطمة) على أن تراه في عصرية اليوم الأخير وأطالت النظر إليه على خلاف ما تظهره له من اهتمام عابر يغلب عليه البراءة والإعجاب. هل هي نظرات الوداع أو نظرات العهد والوفاء؟ دقات قلبه المتصاعدة التي لم يألف سماعها تسللت بإصرار غريب إلى كل أحشائه كي يبقى يقظا في انتظار النهار.

غادر الركب البلدة الدوعنية ضمن قافلة من قوافل الجمال التي غالبا ما تكون وجهتها مدينة المكلا عاصمة السلطنة القعيطية وبوابة الحضارمة إلى العالم الخارجي. كان واضحًا على الشيخ مبروك الوجوم والحزن رغم محاولاته في نشر الهدوء، وتعزيز التماسك بين أفراد عائلته، ولعل من بواعث حزنه إحساسه الداخلي بان تلك اللحظات ربما تكون آخر عهده بقريته وبوادي دوعن القريب إلى قلبه.

وعلى خلاف تلك المشاعر اليائسة، والدموع المكبوتة، كانت فاطمة على موعد مع طوفان من الدموع لا يعلم مقدارها إلا الله فقد اختارت شرفة قصية من بيت أبيها واتخذتها مكانا لوداع(الحبيب) فحينما وجهت القافلة شطرها حيث وجهتها كانت أشارت بالوداع المصحوب بالدعاء بالسلامة والعودة القريبة، فأخذت تلوح باستحياء من تلك الشرفة واستمرت في تلويحها منذ أن كانت القافلة خطا عريضا لا تخطئه العين إلى أن أضحت نقطة بعيدة معلقة بين السماء والأرض.

تستغرق الرحلة من دوعن الى المكلا في الحالات العادية بين السبعة إلى الثمانية أيام وإذا كان السفر عبر سفينة(البر) منهكا، وله مشكلاته العديدة فهو عند الأغلبية أكثر أمنًا إذا قورن بالرحلات عبر السفن الشراعية. كان الشيخ وعائلته في مدينة المكلا على موعد في رحلة جديدة إلى مدينة جدة الوجهة التي غالبا ما يقرر المهاجرون الحضارمة الاستقرار فيها ومنها تتجاذبهم المقادير إلى حيث ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.

حطت العائلة عصا الترحال في مدينة جدة(الأليفة) واحترفت مهنة التجارة التي فيها تسعة أعشار الرزق (كما جاء عن الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)، وشقت طريقها عبر الأبواب السليمة بخطوات محسوبة يمكن وصفها في البداية بالبطيئة لكنها متماهية مع الحركة الاقتصادية المتنامية للمجتمع السعودي.

وكبر الصغار، وأدرك الشيخ مبروك هذه الحقيقة المتابع لها عن كثب كان اختيار رفيقة العمر للشباب في هذه المدينة العربية المسلمة أمراً ميسوراً ولكن بقيت مشكلة العروسة عند عبدالرحمن الذي آثر أن يتزوج بمن تعلق قلبه بها في أرض الوطن دون أن يفصح عن أصلها وفصلها، كان الشيخ مبروك ينظر إلى الأمر بنوع من الشفقة على ابنه من مشقات السفر لهذا أصر على تكون العروسة المرشحة من العائلات القاطنة

في المملكة، لكن (العاشق) الذي لم يفصح عما يختلج في صدره لم يقتنع بوجهة نظر والده، وفي لحظة من لحظات الغضب، وربما طيش الشباب قرر أن يغادر هذه المدينة رافضا ما يرتب له فيها.

في عرض البحر وعلى سطح السفينة المتجهة إلى الجزر الاندونيسية حيث يوجد بعض أصدقائه أخذ عبدالرحمن في إعادة حساباته وتقويم موقفه. وفي حقيقة الأمر كان يرى في أعماقه أن وجهته الحقيقية يجب أن تكون إلى بلاده التي دافع لتكون اختياراته في الزواج منها، ولكنه يرى في العودة الى أرض الوطن تحديا سافرا لإرادة والده، لقد عاش عبدالرحمن صراعاً مريراً بين تلبية حق الأبوة في الطاعة، وبينه حقه في الاختيار بمن يحب.

استقر(العاشق الغضبان)في جزيرة جاوا في البداية كان يظن أن مكوثه مؤقت وفرصة طيبة لالتقاط الأنفاس والتفكير الهادي .لكن هذه الجزيرة الجميلة والمزدحمة بالسكان والمليئة بالفرص زلزلتها أحداث كبيرة تمثلت في نمو الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار الهولندي ثم أخذت نذر الحرب العالمية الثانية تلوح في الآفاق وإذا باليابانيين بعد أن حمي وطيس هذه الحرب يتغلغلون في هذه الجزر، وبعد نهاية هذه الحرب صارت إندونيسيا جمهورية مستقلة تجاذبها ايدولوجيات مختلفة ورؤى سياسية متصارعة، أربكت إلى حين من الزمن حالة الاستقرار فيها.

في وسط هذه الأوضاع العاصفة كان عبدالرحمن قد تقطعت به السبل بينه وبين أهله وأحبابه، وشكل لنفسه عائلة جديدة بملامح اندونيسية خالصة وكان عليه كما كان على أبنائه البحث عن لقمة العيش الكريمة كان حظ العائلة من الأعمال يسيرا وبالكاد يسد الحاجة.

أما حظ أهله في المملكة العربية السعودية فكان وفيراً إذ تفتحت لهم أبواب عديدة من الرزق توسعت بموجبها التجارة وصار اسمهم يسجل مع الأسماء التجارية الكبيرة، ورغم الحياة المزدحمة بالأعمال والحركة لهذه العائلة إلا أن بعض أفرادها من الجيل الأول ظل يراودهم شبح الأخ (الضال) وكانوا يتمنون لو أن هذه الصفحة الغامضة من تاريخ العائلة تطوى أو تفك أسرارها وتحدث أخبارها، وغالبا في غياب الحقائق تسود الأساطير وتنتعش الخرافات، كانت أغلب الظنون ترجح وفاته، ما يدعم ذلك اختفاء أثره، ولأن غيابه الاختياري ليس لسلوك أو جريرة اقترفها تجعله يحرص على الاختفاء والتستر لمدة زمنية طويلة. لكن مدينة جدة ليست قصية أو معزولة فالناس تأتيها من كل فج عميق، ولاسيما المسلمون المتعطشة قلوبهم لزيارة الحرمين الشريفين.....

في يوم من الأيام كانت أسرة الشيخ مبروك في مواجهة مباشرة مع سر من أسرارها. فقد لاحظ بعض الحجاج الإندونيسيين الحضارمة على واجهات الكثير من المراكز التجارية اسم الأسرة فدعاه فضوله بأن يسأل أهل الدار لعله يجد في الاجابة رابط ما يربطهم بصديقه. عندما تكلم هذا الحاج (الفضولي)عن صديقه في إندونيسيا كان لا يدرك شيئاً عن الحلقة المفقودة والسر المكنون، أما آل الشيخ مبروك فنظروا إلى الأمر بتروٍ وحكمة وقدموا للرجل الفضولي رسالة مغلفة تضمنت عدداً من الأسئلة العائلية الخاصة جدا التي لا يعرفها إلا أفراد العائلة المقربون، وجاء الرد بما يؤكد، وبما لا يدع مجالا للشك أن (غريم) آل مبروك حي يرزق وأن سرهم آن له ان يظهر للعلن، ليلتئم حضن الأخ مع أخيه، وشمل الحفيد مع الحفيد.

آثر الشيخ عبدالرحمن أن يعود أولا إلى أرض الوطن وبالذات إلى مدينة المكلا في عهد حكم الجمهورية الديمقراطية كان يشده إلى مسقط الراس حكاية عزيزة إلى قلبه،

فكم تمنى لفاطمة حياة سعيدة وذرية صالحة ولو من رجل غريب. في مدينة المكلا وجد من يدله على أخبار بلدته..... من معلومة إلى اخرى حتى عرف أن الحبيبة عزفت عن الزواج لأسباب لا يعلمها أهل البلدة رغم كثرة الخطاب ثم عرف الخبر الذي نزل عليه كالصاعقة فاطمة قبل بضع سنين غادرت الحياة.

مضت السيارة بالراكب الغريب إلى دوعن، لم يخبر أحدا بهذه الرحلة الحزينة، خيل إليه أنه يكرر رحلة الضياع عندما كان مسافرا إلى الجزر البعيدة ولا يدري ما تخفيه له الأيام، في مقبرة القرية جلس أمام القبر وقد أنهكه التعب، وحرقته اللوعة، وثقل رأسه من الهم، وغمره الإحساس بالندم، وعندما رفع رأسه المنكسر لاحت أمامه شرفة من شرفات بيت فاطمة فأطال التحديق فيها كعادته في الأيام الخوالي بينما انهمرت الدموع، وفاض وادي دوعن وشعابه.....

* * *

سعديّة.. دوامة الغربة

ارتبطت ملحمة الهجرة الحضرمية بقصة رجالها الذين غادروا وطنهم دون نسائهم بحثًا عن وطن بديل، أو فرص عيش أفضل تتسق مع طموحاتهم وتطلعاتهم المشروعة، وهي بهذا هجرة ذكورية بامتياز، لكن هناك هجرة أنثوية داخلية لهم، متوازية مع الهجرة الذكورة، غفل عنها بعض ممَّن تصدوا لدراسة أسباب الهجرة ونتائجها، ربما لأنها ليس لها علاقة مباشرة بنقاط الانطلاق، ومرافئ الوصول، إنها قصة المرأة الحضرمية (الأم والأخت والزوجة والابنة) اللاتي يدفعن ثمن غياب الأحباب بصمت البحار والمحيطات عندما تتوقف حركة الرياح، لكنهن في أعماقهن تتفجر حمم من براكين الخوف، والرجاء، والشوق، والشجن، لا يخفف من أوارها إلا نتف الأخبار، وشظاياها التي تقذفها السفن البخارية من البحار البعيدة، وتعود إلى سكونها عندما يكون اللقاء بالأحضان.

لكن قصة النساء الحضرميات مع الهجرة لا تتوقف عند الصابرات في الوطن – اللاتي يكن في حالة انتظار شبه مستمر –، بل يصل وجع الهجرة إلى نساء المهاجرين في مواطن الهجرة، ولاسيما عندما يؤسس الحضرمي عائلة جديدة أو بديلة، ثم تحدث تغيّرات سياسية دراماتيكية فيها، تبرز بموجبها حركات متطرفة معادية (للغرباء)، فيهتز كيانهم المسالم، ويصير نزوح (نساء) العائلة المهجرية أولوية قصوى لحمايتهن من الاعتداءات المتوقعة.

وقد سجل سفر الهجرة الحضرمية حكايات لنكبات حلت بهم في بعض بلدان شرق حوض المحيط الهندي، وغربه، ومع هذا وفي في خضم ملحمة الهجرة تتكرر دوامة السفر، وتتجدد مصائب النساء المغلوب على أمرهنَّ، فكما أن آخر ما يفكر فيه المهاجر

الحضرمي عند مغادرة بلاده هو اصطحاب النساء من أهله، فإنه في حالة السفر العكسي الاضطراري أول ما يفكر فيه هو كيفية مغادرة النساء من أهله إلى الوطن، وفي كلتا الحالتين تتحمل النساء معظم الآلام النفسية، ومع هذا هُنَّ دائمًا الحكاية المنسية من دراما الهجرة، في حين أنهن في قلب الحكايات.

(سعديَّة) امرأة حضرمية من مواليد الصومال، هاجرت إلى (بلاد أجدادها) حضرموت، عندما غابت الدولة في (بلاد ميلادها)، وصارت اليد الطولى فيها لأمراء الحرب والسلب، لهذا كانت في تغريبتها تبحث عن الأمان بعد أن كانت في وسط أسرتها تعيش حياة ميسورة الحال، فوالدها يمتلك مزرعة كبيرة اشتراها من حصاد غربته الذي جمعه بعرقه، وجهده، في زمن فتحت بلاد الصومال أراضيها للمهاجرين العرب بروح الأخوَّة الإسلامية، لكنْ عندما تغير الحال غير الحال انقلبت الموازين، وصار قرار الهجرة العكسية عند الأغلبية منهم إجباريًا، لكنه جاء في وقت لم يستعدوا له، أو ربما لم يفكروا فيه.

وصلت سعدية إلى ميناء المكلا برفقة فتيات نازحات مثلها، بعضهن أرامل، ومطلقات، وبصحبة عائلات تركوا خلفهم بعض أهلهم ومعظم ما يملكون، لكن مشاعر المصيبة الواحدة دفعتهم إلى المساندة لمواجهة معضلات ما بعد الوصول، بالنسبة لسعديّة بقي لها في (بلاد ميلادها) والدها واثنان من أشقائها الصغار، وكانت قد فقدت أمها وأخاها الأكبر عندما هبوا للدفاع عن شرفهم وأرضهم ومالهم، أما والدها فقد رفض مغادرة مزرعته رغم أنها خاوية على عروشها، فكان يحذوه الأمل في عودة قريبة للسلام.

ولأن عصر السلام في الصومال بدأ بعيد المنال في الأقل في المنظور القريب، لم يعد أمام سعديَّة إلا مواجهة قدرها مع ابنها الصغير بالاعتماد على نفسها، خاصة بعد أن فقدت الأمل في لمِّ شمل عائلتها الصغيرة مع مطلِّقها الذي اصطحب ابنتهما وسبقها في سفر العودة إلى الوطن، وتزوج في مدينة سيئون بأخرى.

في الحي الفقير الذي يسكنه العائدون من دول شرق أفريقيا،(جول الشفاء) وجدت سعديَّة ملاذًا متواضعًا، مكوَّنًا من غرفتين، تقاسمت إيجارهما مع زميلة لها في السفر، ولأنها تجيد خلط الطيوب والبخور اتخذت من ذلك مهنة تبيع منتجاتها على قارعة الطريق، كان دخلها يكاد يغطي نفقات معيشتها مع ابنها الصغير، ومع هذا استمرت المصاعب تلاحقها، والهموم، فحال والدها وأشقائها في الصومال ازداد سوءًا بعد زواج والدها، فاضطرت للعمل في البيوت لزيادة دخلها، وصار نهارها مزدحمًا بالعمل؛ فهي تبيع بضاعتها المتواضعة صباحًا، وما بين الظهر والعصر تخدم في البيوت، ثم تستأنف بيع بضاعتها إلى أن ينتهي (دوامها) مع أذان المغرب، ثم تعود إلى مأواها وقد بلغ التعب منها مبلغًا كبيرًا.

وما هو أشد وطأة على كاهلها، ويثير حزنها أن ابنتها الوحيدة تأنف مهنتها الجديدة، وتدعوها لتركها، لكنها كانت ترى أن عملها أشرف من التسول، وأرفع بمسافات مما هو أسفل منه، لهذا توافقت مع نفسها، كانت تشعر بدورها في موضع المحارب الصامد الشريف لمواجهة ثلاث جبهات لا تستطيع الفكاك منها، فمن جهة تريد أن تسترضي ابنتها فهي لا تبخل عليها بهدية رمزية من بعيد إذا جاد عليها الزمان بما فوق حاجاتها الضرورية، ومن جهة ثانية تقاتل لتربي ابنها الذي تركه والده بلا معيل، ورفضت أن تضع نفسها في موقف الاستجداء منه حتى لما هو حق لابنها، وجبهة ثالثة تقوم بإرسال حوالة لوالدها شهريًّا، وهي غالبًا راتبها من عملها في البيوت.

هذه الملحمة ثلاثية الأبعاد في المعاناة جعلت القريبات من صديقاتها يُطلِقْنَ عليها في لحظات المزاح الممزوج بالمرارة (تعسيّة) فتبتسم سعديّة لأنها تدرك خلف التسمية الجديدة مشاعر مواساة حقيقية من صديقات يقاسين مثلها المآسي وتشتت الأحباب، لكنهن يستمددن دروس الصبر من صمتها وثباتها، و(سعديَّة) تدرك مفارقات اسمها

مع واقعها، أحيانًا تنتابها بعض الخواطر المسكّنة لمنغصاتها، فترى في دلالات اسمها لرسالة مكتوبة عليها في الجبين، وهي مهمة إسعاد غيرها، فكيف لمثلها تأتيها الأيام السعيدة وهي التي شهدت بأم عينها مآسي عائلاتها الكبيرة، وتمزق عائلتها الصغيرة، ثم إنها تسكن مدينة وديعة، لكنها تراها بعيدة عن مواطن براءتها، وبيت عزها، وقبر أمها.

ومما يزيد من معاناتها إحساسها بالغربة المزدوجة كغيرها من (المولدات)، ففي (بلاد أجدادها) حسبت على الصومال، يدعم ذلك لكنتها عندما تتحدث باللغة العربية، وملامحها الصومالية التي ورثتها عن أمها، وفي (بلاد ميلادها) لاسيما في عصر الفوضى وانفلات الأمن حسبت من الغرباء. وكان عليها تحمل ضغوطات العمل التي لا تكاد تنتهي، وكانت تصبّر نفسها على سوء معاملة بعض مستخدمها، الذين يستثمرون ساعات عملها بلا شفقة مقابل أجرها الزهيد، ومع هذا، ولأنها تحمل نفسًا عزيزة، وعينًا راوية، وضعت لنفسها سقفًا محددًا من الاحتمال بعزيمة لا ترضى بالمذلة والانكسار.

لهذا تنقلت سعدية في عدد من البيوت إلى أن وصلت إلى بيت تفهَّم أهلُه كفاحها في الحياة، ورسالتها النبيلة مع أهلها، فتخفَّفت بعض أعبائها، وما أكثرها في تفاصيل حياتها! لكن أجمل ما رأته في هذا البيت المكافح المعاملة الإنسانية التي حظيت بها؛ بوصفها فردًا (كامل السيادة)، فنصيبها من الغداء مع توابعه تجده تمام بتمام مع نصيب أفراد العائلة وأحيانًا أوفر حظًا، كان عمل ربة البيت في سلك التدريس، وعلى ضآلة راتبها كانت تعمل بالمقولة المشهورة (عِش وعيّش) فوجدت - المعلمة - بدلًا من أن تخسر عملها الحكومي، وتتفرغ لبيتها هناك مساحة وسطى، وهو اقتسام جزء من راتبها لمن يعينها في شغل البيت، ثم إنها جدولت عمل سعديَّة بحيث لا تشعر بالإنهاك، فالتقت المصالح مع المنافع، ثم امتزجت بالجوانب الإنسانية، خاصة عندما تتفهم هذه العائلة لبعض التزامات سعدية القاهرة، وأحيانًا تبحث عن مساندين لها،

وهكذا شعرت سعدية بنوع من الدفء، والأمان في هذا البيت الذي صان كرامتها، واحترم عملها، وتفهم اضطرارها إليه، وقدَّر كفاحها في الحياة.

لكن الخبر غير السار هو أن هذه العائلة (الطيبة) تستعد للسفر خارج البلاد، بالنسبة لسعديَّة نزل عليها الخبر كالصاعقة؛ لأن ذلك يعني ارتباك كثير من أمورها، وعودتها إلى نقطة الصفر، ومع هذا كانت الأقدار تخفي لسعدية ما هو سار من الأخبار، ساعدها في ذلك ربة البيت التي روجت لأمانتها، وإخلاصها في العمل، لهذا وقبيل سفر العائلة تأكد انتقالها للعمل في بيت أحد أثرياء المدينة. كانت تظن أن المعاملة ستختلف، وأن البيت الجديد الكبير سيتطلب منها جهدًا كبيرًا؛ إذ لم تعد صحتها تقوى عليه، فإذا بها تفاجأ بما لم تحلم به؛ فقد طلب منها التخلي عن عملها (في التجارة)، واحتساب ما تربحه منه في راتبها، ومع مرور الزمن كلفت فقط بمتابعة بقية العاملات، وترتيب متطلبات المطبخ بالتنسيق مع زوجة صاحب البيت، وخصص لها غرفة خاصة إذا أرادت المبيت في بيت هذا الثري الكريم.

وهكذا تذوقت سعدية طعم السعادة بعد سنوات عجاف من التعاسة، وعاد إليها اسمها الحقيقي من صديقاتها المقرَّبات عند مزاحهن البريء، لكن كما يقال: "دوام الحال من المحال"، فحملت الأخبار من بلاد ميلادها ما جعلها تقرِّر العودة النهائية إليها؛ لتلبية رجاء والدها إيَّاها؛ لكي يراها بعد أن شعر بدنو أجله، واستعدَّت سعدية لرحلة جديدة من المعاناة، والسفر عبر السفن الصغيرة التي تجلب البضائع والمواشي من بلاد الصومال، كانت سعديَّة تشعر في أعماقها أنها لم تخذل والدها، وأنه راض عنها، ويعزِّز هذا الشعور ثقتها بالله بأنه سيكون معها، لهذا تبدو للناظرين متماسكة.

وبينما هي قبل يوم السفر تستعرض شريط حياتها، وتفكر في المهام الجديدة التي ستلقى على عاتقها بعد وفاة والدها المتوقعة، وتصبِّر نفسها على غصَّة فراق أبنائها

وأحفادها الصغار، توالت المفاجآت وتسارعت، سعديَّة أصابها نصيب وافر من اسمها، فقد تغيَّر مسار الرحلة من البحر إلى الجو فالرجل الثري (المحسن) حرص على أن يودّع هذه المرأة المكافحة بما يليق بأمانتها، ووفائها لأسرتها، وبرها لوالدها، وبشَّرها عند الوداع الأخير أن راتبها سيصلها أوَّلًا بأوَّلٍ كل شهر بحوالة إلى (بلاد ميلادها)، وسلّمها مبلغًا كبيرًا من المال بسريَّة تامة، في الأيام الخوالي كانت سعدية تردد ما يقوله أبوها إنه في سنوات عز بلاد الصومال كان يصل خيرها إلى بيوت بعض فقراء حضرموت، لعلها بعد أن تسلَّمت أول حوالة بحسب وعد الرجل الثري تذكرت كلام والدها، وربما شعرت أن (بلاد أجدادها) تردُّ لبلاد الصومال الوفاء بالوفاء، وعلى أية حال فإن قصة سعديَّة في بلاد أجدادها لم تنته كما هو الحال في بلاد ميلادها، التي صارت فيها فرص السلام أكبر من احتمالات الحرب، لكن في بلاد أجدادها حيث يعيش أبناؤها وأحفادها لا تزال فرص الحرب فيها أكبر من احتمالات السلام.

* * *

في مفترق طرق

البدو والحضر

مقاربات الاقتصاد والسياسة

تبرز أمام من يسعى لفهم تركيبة المجتمع الحضرمي وحركته التاريخية الحديثة والمعاصرة ثنائية (البادية والحضر)؛ بوصفهما مفهومين اجتماعيين جغرافيين، يعبّران عن أنماط معيشية ذات خصوصيات ثقافية وحضارية واقتصادية، في إطار قواسم مجتمعية مشتركة. لكن العلاقة بينهما لا تخلو من التجاذب، والتكامل، والتزاحم، والتنافر، وستكون إشارتنا لهذين المفهومين بوصفهما تجاورًا جغرافيًا لمجتمع واحد أسهما في حيوية حركته، وتنوع تشكلاته، وسنبتعد عن تفاصيل التاريخ، وأنساق التسلسل التراتبي الاجتماعي إلا بما يوضح جدلية العلاقة بين المفهومين.

ولنتمكن من تتبع حركة العلاقات وضبط كنهها لهذا التقسيم العام الموغل في القدم (بدو- حضر) ستكون انطلاقتنا من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، عندما ظهرت السفن البخارية منافسًا قويًا وبديلًا للسفن الشراعية، واختيارنا لهذه المرحلة لأنها تسارعت بعدها حركة المواصلات العالمية، وتوسعت الهجرة الحضرمية، وانتعشت التجارة الدولية خاصة بعد فتح قناة السويس نوفمبر ١٨٦٩م، وتدفقت حركة الاستعمار الأوربي، فألقت هذه التطورات بظلالها على الأوضاع العامة في حضرموت، وتدريجيًا أحدثت اهتزازات في الجغرافيا الاقتصادية السياسية والاجتماعية، واستمرت حضرموت تراقب، وأحيانًا تتفاعل مع ما يشهده العالم من تطورات متواصلة حتى وقتنا الراهن.

كانت العلاقات بين البادية والحضر (الأرياف – والمدن) تقوم على المصالح المشتركة، فكانت الحواضر تمثل الثقل الاقتصادي والمالي والتنوع في الكماليات والسلع، في الوقت الذي اعتمد رجال البادية على تجارة الماشية والحطب والفحم الخشبي (الصخر)، وبعضهم قد عمل على نقل البضائع عبر الجمال من مدن الموانئ إلى المناطق الداخلية، ورغم أن حياة البدو متواضعة من حيث كلفة المعيشة فإن المدن بالنسبة لهم تمثل عوامل جذب ودهشة، لكنهم لا يستطيعون الاستقرار فيها لعدد من العوامل، أهمها الأعراف القبلية التي ترتبط بالأمن الجمعي القبلي، فهم يحملون السلاح والحضر لا يحملون السلاح، ولهذا ينظرون لسكان الحواضر بنوع من التعالي؛ بوصفهم عزلًا من السلاح، ويستندون في أخذ حقوقهم إلى مؤسسات الحكم المدنية الرسمية والأهلية.

في خمسينيات القرن الماضي (العشرين) وستينياته كان البدو على موعد مع مواجهة حضارية، شكلت بدايات صراعهم مع المدن؛ ففي هذه المدة بدأت سيارات الشحن تنقل البضائع من مدن الموانئ إلى مناطق حضرموت الداخلية بدلًا من الجمال فانقلبت المعادلة الاقتصادية رأسًا على عقب، وصارت مهمة البادية التقليدية في نقل البضائع والمسافرين مهدَّدةً بالانقراض، ومن هنا جاءت ردَّة فعلهم عنيفة، فقاموا بمنع مرور سيارات الشحن، ونتج عن ذلك صدام مسلح بينهم وبين السلطة الحاكمة، وبعيدًا عن تفاصيل هذه الأحداث التي تحمل رمزية الصراع الحضاري بين القديم والحديث (السيارة - الجمل) فقد كان ذلك أيضًا تعبيرًا عن صدمة اقتصادية، أو زلزلة هدَّدت مصدرًا مهمًّا من مصادر رزقهم، وأذنت بنهاية عصر (سيادتهم) على الجبال والهضاب، لهذا كانت خيارات المواجهة أمامهم اضطرارية، أما وجهة النظر الحضرية (السلطة والسكان) فكانت ترى في مواقف البادية من سيارات الشحن أعمالًا خارجة عن القانون، وأنهم يمضون عكس حركة التاريخ، ولصعوبة غلبة وجهة نظر على أخرى

جاءت في البداية الحلول التوفيقية وذلك بتنظيم حركة نقل البضائع، ففي مقابل تحرك سيارة شحن، يُحمّل عدد من الجمال بالبضائع، وبهذا يكون الطريق للجميع، وعلى الرغم من عدم منطقية هذا الحل أو أنه غير قابل للاستمرار فإنه كان عمليًا ومعقولًا في سياقه التاريخي؛ فقد أعطى مساحة زمنية، هيأت البدو لامتصاص صدمة (الجديد)، وتأكد لهم أن الأمور ستؤول لصالحه، ولهذا تدريجيًا باع البعض منهم جماله واستدانوا لشراء سيارات الشحن، وساعدهم ذلك في الدخول في تيار (الحداثة) بقوة، كما واجهوها في أول الأمر بقوة، وقد أعطى بعض المؤرخين لهذه التحركات بعدًا ثوريًا، وأسقطوا عليها مفردات، تتجاوز سياقاتها عندما وصفوها بالتمردات والانتفاضات القبلية ضد الحكم الإنجلو سلاطيني، وهو تحليق بعيد عن مجريات الأمور الحقيقية فوق سطح الأرض.

وقد ارتبط هذا الصراع الاقتصادي مع المدن الساحلية (المكلا والشحر) التي تقع تحت حكم السلطنة القعيطية الحضرمية (اليافعية)، لكن واقع الحال يختلف قليلًا في مدن وادي حضرموت حيث حكم السلاطين الكثيريين (الشنافر)، فلم تشهد هذا الصدام للعوامل عدَّة، منها: أن مدن السلطنة الكثيرية المعترف بها بموجب معاهدة عدن عام ١٩١٨م كانت مناطق مرور للقوافل وليس مراكز انطلاق لها، ثم إن محيط السلطنة الكثيرية يتكون من بلدات، يقطنها قبائل مستقرة من الزي الشنفري (الحاكم)، وهذا يعني غياب المتضرر في حركة الاقتصاد التقليدية مع ظهور السيارات.

وهكذا فعند مقاربات العلاقات الاقتصادية بين البدو والحضر إلى سقوط سلطنتي حضرموت عام ١٩٦٧م نجد الثقل الاقتصادي في المدن الرئيسة، حيث توجد فئة كبار التجار من الأسر الحضرية، أما البدو فقد استمروا على نمط معيشتهم التقليدية،

وعاش غالبهم على الكفاف، وظلت الهجرة الداخلية والخارجية لأصحاب التطلعات منهم الملاذ الوحيد لتحقيق تغيير في سبل العيش، وكسب الرزق.

وفيما يتعلق بعلاقات البادية السياسية بالقوى الحاكمة في المدن الساحلية – السلطنة القعيطية – فقد كان البعد الاقتصادي هو الطاغي، لكنه لا يخلو من التأثر بخطاب الحركة الوطنية التحريرية ذات الموقف المعادي للسلاطين (عملاء الاستعمار)، كما أننا لا نستطيع تجاهل البعد (الطائفي) ولو على نطاق ضيق فالنظرة ليافع عند القبائل هي أنهم غرباء على حضرموت، وأكثر ما تبرز هذه النظرة عند الصدام المباشر. أما السلطنة الكثيرية فهي مكون محلي مرتبط بامتداد الإرث التاريخي لحكم القبيلة الكثيرية، التي ترمز لقيادة الزي (التحالف) الشنفري المتكتل ضد التهديد اليافعي المسيطر على شبام وما خلفها وعلى مدينة دمون وما بعدها وهي مناطق يعدونها ضمن حقوقهم التاريخية في حكم حضرموت

إن القراءة العميقة للعلاقات السياسية بين الريف والمدينة لابد أن تمر عبر معرفة الخريطة القبلية لحضرموت، وموقف القبائل من تقاليد الحكم المدني وتبعاته، وبدايةً لابد من الإشارة إلى أن هذه الخريطة لا تختلف عن جوارها الجغرافي في مناطق الجزيرة العربية، التي تتقسم فيها الأراضي بحدود قبلية متعارف عليها، بمعنى آخر تدخل كل المناطق الحضرمية تحت عُرف الحق القبلي التاريخي الذي يقصد به حق الرعي، والاستقرار، ومنع القبائل الأخرى من التوسع أو الاستقرار إلا بتحالفات مكتوبة. وحتى البلدات والمدن ذات الحكم الأسري من خارج القبيلة صاحبة الأرض تحكمها هذه الأسر أحيانًا بالغلبة، وفي كثير من الأحايين باتفاقيات تختلف شروط بنودها، لكنها تقر ضمنيًا بحق القبيلة العام للمنطقة.

ويعزى الموقف البدوي السلبي من السياسة أو عدم تطلعهم نحو الحكم في المدن إلى عوامل كثيرة، منها: أن البادية تجد منعتها في المناطق الداخلية حيث أعباء الدفاع عنها أيسر، وكلفتها المادية والبشرية أقل، لهذا غاب عندهم عنصر المغامرة، كما أن الصراع القبلي المزمَّن حتى في إطار القبيلة الواحدة يجعل من تزعم رجل من القبائل لتوحيد التجمعات القرائبية تحت إطار سياسي واحد فكرة مستحيلة التنفيذ، كما ان تعدد رؤساء القبائل (المقادمة) في داخل القبيلة الواحدة أسهم في غياب المرجعيات القبلية ذات الكلمة النافذة والمسموعة، إضافة الى ذلك محدودية الوعي الاجتماعي لشيوع الأمية بينهم، فضاقت رؤيتهم لمفهوم الوطن بحيث لا يتعدى مثاويهم الرئيسة، لهذا غاب الدور السياسي للقبيلة في حضرموت، وظل شاغلهم الاقتصادي مع الحضر في التركيز على بيع (منتجاتهم) وأخذ الضرائب من الصيادين أو تأكيد شروط الإعفاء من الضرائب عند دخولهم المدن المسورة أو بالحراسة المفروضة للمزارع (الشراحة). في القرى المجاورة لهم.

هذا الغياب (البدوي) السياسي في المناطق الحضرية ترك فراغًا كبيرًا استفادت منه القبائل اليافعية التي سيطرت على معظم المدن والبلدات الحضرية خاصة بعد سقوط السلطنة الكثيرية الأولى ١٧٣٠م، وكانت القبائل اليافعية باختلاف مكاتيها يمثلون الفئة المسلحة من الحضر، وبذلك كانوا حماة الديار، والمتحكمين فيها.

ويمكن عد أول دخول للبدو في معترك الحكم بشقه العسكري الرسمي عندما تأسس الجيش البدوي الحضرمي (H.B.L) عام ١٩٣٩م، وهو قوات تتبع وزارة المستعمرات البريطانية مباشرة، جاء تأسيس الجيش في إثر التحديثات التي قام بها المستشار البريطاني (إنجرامس) في مؤسسات الحكم في سلطنتي حضرموت، كما تمكن (البدو) من الانخراط

في المؤسسات العسكرية القعيطية، وكان هذا على حساب الثقل العسكري اليافعي في حضرموت لكنه في المدى البعيد كان لصالح (حضرمية السلطنة القعيطية)، وتحيل مسميات الجيشين (البدوي الحضرمي) و(النظامي القعيطي) إلى رمزية ندية ودلالات اختلافية أو ضدية غير مرئية، لكن الإشراف المباشر من قبل المستشار البريطاني بوصفه المرجعية العسكرية والسياسية لهما قد أسهم إلى حد مقبول في ضبط شوكة الميزان.

في بداية أربعينيات القرن الماضي عمّت حضرموت ما عُرف بالمجاعة، وكانت أشد وطأة في المناطق الداخلية – الوادي والهضبة – فصاحب ذلك حركة نزوح كبيرة إلى المدن، وعزَّز من ذلك بالنسبة للبادية إعلان تمديد هدنة السلام لعشر سنوات من (١٩٤٠- ١٩٥٠م)، وفي إثر ذلك تشكلت في أطراف المدن أحياء البدو، وفي بداية أمرها يمكن وصفها بأحياء (بين بين)، وهي مرحلة انتقالية منطقية، تؤشر لعبور البدو التدريجي والسلس إلى مجتمع الحضر(المدن) وقبول شروط الاستقرار فيها.

في أحداث ديسمبر ١٩٥٠م في مدينة المكلا أو ما يعرف بحادثة القصر أطلق جيش النظام القعيطي النار على المحتجين فسقط ١٧ شهيدًا من المتظاهرين، كان (الحضر) يطالبون بشراكة محدودة في السلطة، وهي تعيين وزير وطني للسلطنة بدلًا من الأجانب، لكن أصداء هذه الحادثة وصلت إلى البادية الذين استنكروا تصويب الرصاص الحي إلى المواطنين العزل، وربما كانوا يرون أنفسهم من الناحية الأخلاقية – بوصفهم يحملون السلاح – الجهة الوطنية المعنية بالدفاع عن إخوانهم في المدن، لكن لم يكن هناك موقفٌ واعٍ منظمٌ وواضح المعالم.

في خمسينيات القرن العشرين وستينياته التي يمكن وصفهما بعصر القومية العربية، ومع توسع التعليم، وظهور الصحف الأهلية، وتوسع سماع الإذاعات العربية خاصة

صوت العرب من القاهرة كل ذلك ترك آثاره بوتائر متنوعة على مجتمع البدو والحضر على حد سواء، اللذين وإن اختلفا في أمور فقد وحَّدتهم المشاعر العروبية والحلم العربي، لهذا دخل الحضر والبدو بمستوياتهم المتنوعة غمار الحركة الوطنية التحررية، وتمكن البعض منهم من الوصول إلى مراكز متقدمة وتقلدوا بعض الوظائف الكبيرة، وبهذا تطورت نظرة البدو تجاه المدن، وتغيرت مفاهيم (الرجولة والبطولة)، وزاحموا الحضر في التعليم، وفرص العمل والتجارة، والعلاج، والخدمات العامة، وسارع هذا من عملية انتقالهم واستقرارهم في المدن، وصارت الهجرة الداخلية عملية مستدامة، أخلَّت بالتوازن في الثقل السكاني لصالح الحضر.

في عهد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فرضت مصطلحات جديدة مثل الطبقة الكادحة بتفرعاتها (عمال - فلاحين - صيادين - مثقفين ثوريين- وبرجوازية وطنية)، وفي الاستمارات الرسمية عند المعاملات توجد خانة لكتابة الانتماء الطبقي، وغالبًا ما تملأ بتصنيف (فلاح أو عامل أو صياد)؛ بوصفهم أصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة، وحتى تمرر المعاملة لابد أن تعبَّأ الخانة تحت هذه التصنيفات، فتوارت لفظتا البدوي والحضري وتفرعاتهما التراتبية.

وعلى أية حال فإن المدن الساحلية تكيفت مع هذا التقسيم النظري الموجه، أما البلدات والمدن القريبة من الأراضي الزراعية خاصة في وادي حضرموت فبموجب قانون الإصلاح الزراعي وشعار (الأرض لمن يفلحها) سيطر الحضر الأُجَراء على الأراضي الزراعية على حساب أصحاب الأرض من البدو، ومن غيرهم، فخلق هذا مشهدًا جديداً، ارتفع فيه الحضر نظريًا من وضع الأجراء (جعلة - ضعف) إلى ملاك بتوصيف فلاحين كادحين، واستندوا في ذلك على أيديولوجية النظام وغطائه الأمني، وهذا التحول الثوري

ترك في النفوس غضبًا تأجل انفجاره عند الملاك الأصلاء إلى حين من الدهر، وعمومًا حاولت الجمهورية اليمنية الشعبية رغم الكثير من أخطائها على تأصيل مفهوم المواطنة المتساوية، وفرض سطوة القانون على الجميع.

بعد الوحدة اليمنية عام ١٩٩٠م ذات الثقل القبلي لتقاليد الجمهورية العربية اليمنية السابقة اشرأبت القبلية في حضرموت والجنوب من جديد وتغيرت الولاءات والاصطفافات، وبعد عودة الأراضي الزراعية إلى أصحابها من الملاك (البدو وغيرهم) عادت نظرة الازدراء تجاه (الحضر) الذين تملكوا الأراضي (بالعنف الثوري)، لكن في خضم هذا التنازع والتشاحن على ما فوق سطح الأرض المضغوط بأعباء التاريخ، كان هناك في حاضرهم من ينزع ثرواتهم الثمينة التي من باطن أرضهم (بعنف وحدوي).

وبتداعيات ما عرف بالربيع العربي قامت (ثورة التغيير) في الجمهورية اليمنية في ١١ فبراير ٢٠١١م، وانقسم النظام الحاكم على نفسه، وضعفت شوكته، وانكفأ على نفسه بغير طائل، وبدأت الأطراف السياسية تبحث لها عن مكان في المشهد القادم الذي يؤشر إلى تغيرات واسعة، في هذه الأجواء أسس الحضارمة في مدينة المكلا (مجلس حضرموت الأهلي)، وضمَّ كل النسيج الحضرمي، وتحسب المبادرة لقيام هذا الكيان (للحضر)، لكن المجلس شهد انقسامات أدَّت إلى إضعافه ونهايته لأسباب لا داعي لذكرها، لكن عوامل التهميش التي عانت منها حضرموت جعلتها غير مستعدة تاريخيًّا لتشكيل هيئة وطنية متماسكة تعبّر عن مطالب أهلها، لهذ تم اختراق المجلس بيسر من الجهات ذات المصلحة، ومن جانب آخر يدل تراجع المجلس على مدى عجز نخبة (الحضر) في قيادة حضرموت نحو تحقيق اصطفاف أهلها ولو تحت سقوف متواضعة.

إن التحول اللافت في عهد حكم (الجمهورية اليمنية) هو تحول الثقل الاقتصادي في حضرموت من المدن إلى الجبال وذلك بظهور النفط بكميات تجارية هائلة في هضبتها الوسطى حيث يعيش غالب السكان حياة بدوية تقليدية فقيرة، وحرموا من خيرات أرضهم ولو بأقل القليل فوجدوا –مع أسباب أخرى – أن الحصول على نصيب معقول من هذه الثروة لن يتم إلا بموقف قبلي حضرمي موحد ضاغط. فتكوَّن حلف قبائل حضرموت في ٧ يوليو ٢٠١٣م.

وقبل قيام الحلف كانت المدن الحضرمية الكبرى سباقة في البحث عن الخلاص؛ فقد تأسس الحراك الثوري الجنوبي - الذي انطلق من حضرموت - عام ٢٠٠٧م، وطالب بإعادة الدولة الجنوبية، وظهرت أيضًا الدعوات المطالبة باستقلال حضرموت، وكان القاسم المشترك لهذه التحركات هو الشعور بظلم الشمال وسطوته على الجنوب، وهكذا توحدت الجبال والسهول من أجل الانعتاق، وبقيت معضلة كبيرة من يتحمل عبء القيادة.

في ٢ ديسمبر٢٠١٣م استشهد (سعد بن حمد بن حبريش) مقدَّم قبيلة الحموم ورئيس حلف قبائل حضرموت من قبل قوات حماية الشركات، فشاهد الجميع جثته مضرَّجة بالدماء على قارعة الطريق، وهذا الحدث الأليم قد هزَّ الوجدان الجمعي للحضارمة، ووخز كرامتهم، فدفعهم نحو تشكيل موقف موحد لكل الجغرافيا الحضرمية، وتزعمت قبلية الحموم دعوة الحضارمة إلى وقفة حقيقة تقتص من المجرمين، وتعيد لهم كرامتهم وحقهم في خيرات بلادهم.

في وادي (نحب) احتشد الحضارمة بكل أطيافهم تلبية لدعوة الحلف، وبدأ المشهد وكأن الجبال - حيث مواطن الثروة، وأهل الشهيد - هي من تمسك بزمام المبادرة

وتتصدر الأحداث، لهذا وتحت ضغط تلك اللحظة العاطفية التضامنية مع القبيلة المكلومة صار مقدَّم قبيلة الحموم الشاب الجديد هو رئيس حلف قبائل حضرموت (تغير اسمه إلى حلف أبناء حضرموت)، وفي هذا التجمع الحضرمي الكبير من نوعه تم إعلان (الهبة الحضرمية)، وهي دعوة عامة؛ ليسيطر الحضارمة على مقدَّراتهم، كُلٌّ في مكان استقراره، وحُدِّد موعد انطلاقتها في ٢٠ ديسمبر من العام نفسه، وعلى ما في هذه الهبة من كتلة عاطفية صادقة وجامحة فإن واقع الحال كانت حضرموت عزلاء من السلاح، ولم تحقق الهبة أهدافها الكبرى، من جانبها حاولت السلطة امتصاص الغضب، واتخذت إجراءات لتخفيفه، في الوقت الذي لم يتمكن الحضارمة من التأسيس المستدام لما بعد الهبة من رسم خارطة طريق مدروسة تحقق لحضرموت ثقلًا سياسيًا واجتماعيًا يوازي ثقلها الاقتصادي، والأهم أن يبقى دم الشهيد شعلة متقدة تحافظ على اللحمة الحضرمية، لكن قبول قبيلة الحموم للدِّية حوّل القضية إلى أزمة الحموم، ومشكلة أسرة الشهيد، وليست قضية حضرموت العادلة، وزيادة من السلطة في تمييع هذه القضية عُيِّن مقدم قبيلة الحموم الشاب وكيلًا أوَّلًا لمحافظة حضرموت، وكان هذا مظهرًا آخر لتقدم (البادية) إلى المناصب الرفيعة في الحكم.

ورغم قلة خبرة (الوكيل) فقد قَبِل المنصب؛ ربما لأنه لم ير غضاضة في ذلك فهو ابن شهيد سابق (علي بن حمد بن حبريش) والشهيد الأخير (سعد) عمه، ثم إنَّ الثروة النفطية المنهوبة تقع تحت أقدام قبيلته، كما يتسق تعيينه مع منظومة حكم الجمهورية اليمنية وشيوخ قبائلها.

لكن هناك إيجابيات تعد من مكاسب الهبة لابد من ذكرها، فقد تم تشكيل قوات حضرمية بقرار رئاسي وهي (النخبة الحضرمية) من شباب حضرموت، فاستبشر الحضارمة بهذا الإنجاز العظيم، وتقبلوه كما هو بمشاعر مفعمة بالأمل والعزة؛ بوصفها نواة لقوات

حضرمية تحمي حماها، لكنْ مؤخَّرًا غاب عن بعض القادة هذه المعاني بعيدة المدى، خاصة عندما يزج بها لضرب المحتجين (الحضر) بالرصاص الحي، مما يعطي رمزية خطيرة تمس النسيج الجغرافي والاجتماعي.

كما أسهمت الهبة الحضرمية في نجاح الدعوات السابقة لإيجاد مكونٍ اجتماعيٍ سياسيٍ جامعٍ لكل الحضارمة في الداخل والمهاجر، وفي هذه الأجواء المساعدة التقط الفكرة حلف أبناء حضرموت، فتم تأسيس (مؤتمر حضرموت الجامع)، ولا نريد الخوض في التفاصيل لكن يمكن الإشارة إلى أن تعيين أستاذ جامعي من (الحضر) بمنصب الأمين العام لهذا الجامع يحمل رمزية تقدم البادية على الحضر وتصدرهم للمشهد، وليس قصدنا هنا المساس بالنوايا المخلصة لقيادات هذا المؤتمر الجامع أو نشك في محبتهم لحضرموت أو غيرهم، بل نجتهد لتوصيف واقع الحال بزوايا نظر هذه القراءة التي لا تتعدَّى كونها رأيًا شخصيًا قابلًا للمناقشة والأخذ والرد، الجدير بالإشارة إلى أن (الحضر) كما أخفقوا في تأسيس (مجلس حضرموت الأهلي) ليعبّر عن صوت حضرموت كلها، تعثر (البدو) في تشكيل (مؤتمر حضرموت الجامع) ليكون واجهة جامعة لهم، لكن الجامع لا يزال حيًّا يرزق وهو يحاول، ويجتهد، ويتخبط.

حضرموت اليوم (أكتوبر ٢٠٢١م) تبحث عن ذاتها، وعن قائدها البطل، إنها لا تحتاج إلى شهيد جديد يصنع لها مواقف بطولية، بل تحتاج إلى بطل أمين، وقوي، وذكي، يحب الحياة كحبه للشهادة.

* * *

المحتويات

- الإهـــداء ٥
- المقدمة ٧

أولًا: مسارات إلى الذات

١- النهقة ١٩
٢- يد ما سرقت ما تخاف ٢١
٣- لا تقول بر إلاَّ لمَّان تصر ٢٣
٤- يا ناس خلّوا الصياح ٢٦
٥- المرحوم غلطان ٢٩
٦- المؤرِّخ الملاحي ... لسانك حصانك ٣١
٧- كُل قرصك وادخل خُلْصك ٣٤
٨- السناوة ولا جاوة ٣٦
٩- دخل عيف وخرج زين ٣٩
١٠- فتبينوا ٤٢
١١- الحكمة من أفواه المجانين ٤٤
١٢- رزق جـــالس ٤٧

١٣- سبولة خير من مقلع ٥٠
١٤- إمّن الحضرمي على مالك ٥٣
١٥- من جاء تحت الدار ما منّه تعذّار ٥٦
١٦- كما حمار الهجرين ٥٩
١٧- قبصة حشيمة ٦٣
١٨- الرجال تطعن وتطحن ٦٧
١٩- تدخل بأمرك وتخرج بأمر غيرك ٧٢
٢٠- الشاة شاة سالمين واللّبن لسيده ٧٥
٢١- الشيخ شيخ والسيد ايش من طاهشة؟ ٧٨
٢٢- الشوق ولا المشقة ٨٢
٢٣- دفرنا وبغيت المسقط ٨٥
٢٤- يهزها وهي في الجفير ٨٨
٢٥- ماشي ببلاش إلا نطح الكباش ٩١
٢٦- يا أمريكا بتي لعبي نحن عيال قحطان الشعبي ٩٤

ثانيًا: الخروج من سبيل

٢٧- في بيتنا مناضل ٩٩
٢٨- أيام الخير ١٠٢

٢٩- يوم حزين ويوم (رمضاني) سعيد ١٠٥
٣٠- ثقافة اللوم ١٠٨
٣١- فن الإدارة.. النجاح، التميز، الريادة ١١٢
٣٢- سيف التاريخ وذمته ١١٨
٣٣- من أنتم؟ ١٢٠
٣٤- ذبحوا عيال الجامحة.. ومحد بغى المقسوم ١٢٣
٣٥- سعيد عوض باوزير...نور الكلام وحكمة الصمت ١٢٧
٣٦- مجدي.. تداعيات الحكاية ١٢٩
٣٧- البطل في التاريخ.. فكرة القوة - قوة الفكرة ١٣١

ثالثًا: مع خطى المهاجرين

٣٨- تميم.. عزومة (وايرلس) ١٣٩
٣٩- مبروك.. دوعني في الشتات ١٤٢
٤٠- سعدّية.. دوامة الغربة ١٤٧

رابعًا: في مفترق طرق

٤١- البدو والحضر.. مقاربات الاقتصاد والسياسة ١٥٥



هذا الكتاب

لا تبتعد كتابة أ.د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي الأدبية عن الحياة الاجتماعية، فنظامها لديه مرتبط بأحوالها التي يعيد النظر فيها باستمرار، مواليا كتاباته في هذا المجال دون توقف منذ صدور كتابه (أوراق مكلاوية) عام 2011م. إنه ينطق ولا يكاد يكف عن النطق، وفي منطوقه إيضاحات وإشارات تسعى إلى الإبلاغ عن قضايا معينة، فهو تشغله حضرموت في كثير من مفاصلها، وفي بعض مشاغله كان يصف كما في كتابه (أوراق مكلاوية) و (عابر سبيل) وفي بعضها كان يتأمل كما في هذا الكتاب (تأملات في منتصف الطريق) من غير أن تسيطر عليه تجربة كتابية واحدة، وصفية كانت، أو تأملية، أو تاريخية، وهذه الأخيرة مجال تخصصه الدقيق، وحال التلاحم بين هذه الأنماط الثلاثة لديه غير بعيد، مما أعطاه حظاً من التمكن من حيث إدماج هذه المناحي في تفكيره العام الذي يدفع به إلى الدخول في كتاباته من أكثر من زاوية مستخلصًا أشياء مفاجئة أحياناً ومحاولاً مسايرة ذوق مجتمعه العام في الكتابة، بحيث يمكن للجميع أن يقرؤوه.

د. عبدالقادر علي باعيسى